القسم الثاني

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

حَقيقة رُوحِيَّة

تنويه

إن كشف الحقيقة الروحية للسنة النبوية الشريفة ليس مما يسهل على عموم المسلمين، رغم أن المسلمين جميعا يمكنهم أن ينالوا حظوظهم منها على قدر استعداداهم وترقياهم الروحية في معارج الإيمان، لذا فقد شاءت حكمة الله تعالى أن ينكب على السنة الشريفة، ويغوص في معانيها ومراميها علماء أفذاذ شربوا من مناهلها ووردوا من عذوبتها، ووقفوا على دقائقها، وعاشوها في أعماقهم، ولازموا آداها وسلوكها حتى تحولت عندهم حالا لا يقدرون مفارقتها، ومقاما لا يستطيعون النزول عنه، فسلك تلامذهم سلوكهم، ووقفوا من السنة موقفهم، وذاقوا منها ما ذاق أساتذهم من الرواد الأوائل في هذه الطريق.

ولكن بتقادم العهد اتخذت تلك المسالك التربوية الروحية التي تنبع من حقيقة السنة الروحية أنماطا معينة، ومدارس وطرقاً في التربية والسلوك فتسمت بأسماء كثيرة، ثم غلب عليها اسم واحد شاع وانتشر وهو اسم "التصوف" وتحول إلى اصطلاح، له مضمونه الخاص عند المؤلفين والكتاب.

و"التصوف" شأنه شأن أي شيء آخر عرضة لتقلبات الزمن وعرضة للزيادة والنقصان رغم ثبات حقيقته الروحية الأصيلة المستمدة من السنة النبوية الشريفة.

لذا فلا مناص لأي باحث أو كاتب يريد أن يكتب في موضوع "الحقيقة الروحية للسنة" إلاّ أن يتناول موضوع التصوف من جوانبه الكثيرة، ويمضي في

تحليل نقدي منهجي لإيجابياته وسلبياته، كما فعل النورسي في رسالة "التلويحات التسعة" وهي القسم التاسع من المكتوب التاسع والعشرين من كتاب "المكتوبات".

ونحب أن ننوه هنا إلى أن كلمة "التصوف" أينما وردت في هذا الكتاب، فالقصد المعني منها إنما هي حقيقته الروحية الأصيلة المرتبطة بالسنة النبوية الشريفة وليس القصد منها الشكل الذي يخلو من هذه الحقيقة، وهذا الروح، أو الشكل البدعي الذي لا يمت إليهما بأية صلة.

المدخل

نظرة النورسي إلى التصوف

ينقل النورسي -رحمه الله- خطاه في دروب "التصوف" بثقة واطمئنان، وينساب في منحنياته ومنعطفاته انسيابا خفيفا وشائقا، ويدلف إلى مسالكه وشعابه ادلاف العارف الخبير، والمطلع البصير، ويرود بنا ينابيعه وواحاته ورياضه كمن سلك وسار، وجرب وذاق.

ورغم ما يمنحه "التصوف" للسالكين من أذواق وأشواق، ومواجيد وألطاف، ورغم الأمداء الواسعة الفسيحة التي يأخذ إليها الروح الإنساني، فانه -مع ذلك- ظل قاصرا عن استيعاب تطلعات النورسي الروحية، أو امتلاك تفجراته الذهنية والوجدانية. وما فتئ النورسي يرى في "التصوف" واحدا من مراقي الارتقاء الروحي للمؤمن، إلا انه ليس هو -على كل حال- آخر مراقيه، ولا أعلاها. فخاتمة المطاف، وقمة القمم في "السلوك إلى الله" هو الوقوف في حضرة "القرآن" والتتلمذ عليه والأخذ منه، واعتباره "الشيخ الأكبر والأعظم" الذي يقصر عن مداه كل شيوخ الأرض.

وهكذا كان "النورسي" تلميذا للقرآن، ومتلقيا عنه، والراتع في أجوائه وظلاله، والمقتبس من أضوائه وأنواره، وكل ما كتبه في "رسائل النور" -كما

يشير إلى ذلك- إنما هو رشحات من فيض القرآن، وقطرات من ماء الحياة فيه، وبوارق من أنوار أزاله وأباده.

"إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته". (١)

"وكذا فان رسائل النور ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلكٌ مقتَبسٌ من الإعجاز المعنوي للقرآن يُخرج زلال معرفة الله من كل شيء، فيستفيد السالك في "رسائل النور" في لحظةٍ مالا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة..

وذلك سرٌ من أسرار القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد ويدفع به هجوم أهل العناد". (٢)

ومن هذه القمة القرآنية السامقة ينظر النورسي إلى "التصوف"، -باعتباره رشحة من رشحات حقيقة السنة الروحية- ويكتب فيه رسالته القيمة "التلويحات التسعة" التي يناقش فيها قضاياه، ويعالج معضلاته، ويسلط الضوء على غوامضه، ويزيح الأستار عن عباراته وإشاراته، ويرد على تساؤلات المتسائلين، وحيرة الحائرين ممن اختلطت عليهم الأمور، وتشابكت في أذهانهم معالم الطرق وإشارات السبل، فيأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل ويدلهم على الصراط المستقيم ضمن منهج هو الغاية في الدقة الاستيعاب والشمول، والغاية في العدل والإنصاف والحق

---

(١) الملاحق- ملحق قسطموني ص ٢٢٠

(٢) المثنوي العربي النوري ص ٣٢ .

وسنحاول -بعون الله- أن نستعرض في الصفحات القادمة من هذا الكتاب آراء النورسي وأفكاره عن "التصوف" كما جاءت مبثوثة في رسالته الموسومة "التلويحات التسعة"[1] فهو يعالج في التلويح الواحد مسألة من مسائل التصوف، حتى إذا اكتملت معالجته لها انتقل إلى مسألة أخرى في تلويح آخر، وهكذا حتى يستكمل مجمل آرائه وأفكاره عن الموضوع في خاتمة "التلويح التاسع".

(١) المكتوبات ص٥٧٠- ٥٩٣

الفصل الأول

المصطلحات الصوفية

اختلف الناس وما يزالون مختلفين في تحديد معاني "المصطلحات الصوفية" التي ترد على ألسنة "المتصوفة" أنفسهم، والتي تجري بها أقلامهم وأقلام المعنيين بشؤون التصوف من كتاب وباحثين.

فالكلمة -ولا سيما الكلمة التي تعبر عن أشواق الإنسان- تتوهج دائما بوهج دافق من المعاني، وتسيل بينابيع من الأفكار والمشاعر، مما يصعب على الآخرين ضبط معناها أو حصر مغزاها.

ولكن مهما تباينت الآراء، واختلفت المفاهيم حول مضامين كلمات، "التصوف" و"الطريقة" و"السير" و"السلوك" إلا أن أحداً لا يستطيع أن ينكر بان تحت هذه الكلمات والتعابير، وفي ثناياها، عالما مشرقا جميلا، ودنيا زاهية بالألوان والأضواء، والى هذا يشير النورسي حيث يقول:

”هناك تحت عناوين "التصوف، والطريقة، والولاية، والسير والسلوك" حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة“.

إذن فهناك "حقيقة روحانية مقدسة" يفتش عنها السائرون، ويهدف إليها السالكون... وهي أيضاً ليست أوهاما أو تلبيسات كما يزعم أولئك الذين يجافون "التصوف" وينكرون على أهله.

ولما كانت الحقائق -وهي لباب الوجود- مصونة محفوظة، تسترها الحجب وتغلفها الأصداف، والطريق إليها بعيدة محفوفة بالمخاطر والصعاب كان لابد - لطالب الحقيقة- أن يسير إليها ضمن منهج مرسوم وراء مرشد ودليـــل يعرفـــه المسالك ويحذره المخاطر، ويأخذ بيده إلى الهدف المنشود والغاية المقصودة.

وسير "مريد الحقيقة" ضمن هذا المنهج، هو "الطريقة" التي تواضـــع علـــى تسميتها شيوخ التصوف.

فغاية الطريقة" وهدفها عند النورسي هو:

"معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود".

ثم يعود ويؤكد بان :

"فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع وكمال بشري سام".

ولكن لماذا تقبل الألوف المؤلفة من "المؤمنين" على التـــصوف؟! وأي ســـر يجذبها للالتزام بمناهجه وطرقه وأساليبه؟ وماذا قدم التصوف لهذه الجموع، وماذا يستطيع أن يقدم لها اليوم؟

هذه الأسئلة وأمثالها ظلت دون جواب، ولم يحاول أحـــد ممـــن كتـــب في موضوع "التصوف" أن يكشف عن هذه الأسرار في ضـــمير الإنـــسان، أو في جوهر التصوف. أما النورسي فيقع على السر، ويكشف عنه عبر جامعية نظرته للإنسان والكون، وعبر ما لمسه من التنافذ والتعاطف والتشابه بينهما، فما هـــو متفرق في الكون متجمع في الإنسان، فعقل الإنسان وقلبه ووجدانه هي صـــورة جامعة لعقل الكون وقلبه ووجدانه، وبالاختصار "إن الإنسان صورة جامعة لهذا الكون" بكلياته وجزئياته.

ولما كان -أي الإنسان- صورة جامعة للكون "فإن قلبه -كقلب الكون- خارطة معنوية لآلاف العوالم" أي لا يتم الوصول إلى هذه العوالم والتعرف عليها إلاّ عن طريق هذه الخارطة. و "كما أن دماغ الإنسان -الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي- وهو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها و يبثها أيضاً، فان قلب الإنسان كذلك هو محور لما لا يحد من حقائق الكون، ومظهر لها، بل هو نواتها".

وقد أودع الله سبحانه وتعالى في قلب الإنسان من الأجهزة الحساسة الدقيقة ما يجعله قادرا على تحسس نبضات الكون، وخفقات الوجود، والتأثر بومضات العوالم من حوله والإصغاء لأصداء الغيب، وهتافات الآخرة، لذا "فان فاطر ذلك القلب الذي خلقه على هذه الصورة قد أراد تشغيل هذا القلب وتحريكه والكشف عن قدراته والانتقال به من طور "القوة" إلى طور "الفعل". فما دام سبحانه وتعالى قد أراد هكذا، فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من اجله، كما يقوم العقل بعمله، ولا شك أن اعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هو التوجه إلى الحقائق الإيمانية بالإقبال على ذكر الله ضمن مراتب الولاية عبر سبيل "الطريقة"".

إذن فالتصوف الحق يضع "القلب الإنساني" في الموضع الذي خلق له، ويستخدمه للغاية التي لا يحسن غاية سواها، ويحرك أشواقه لله الذي فطره... فلا عجب -بعد أن عرفنا هذا- في إقبال المقبلين على التصوف، وسلوك السالكين في طرقه وأساليبه ومناهجه، لأنه -باختصار- يلبي حاجة فطرية ملحة في الإنسان.

الفصل الثاني

غربة الإنسان

رغم مقولة: "الإنسان اجتماعي بالطبع"، ورغم ما يبدو على ظاهر سـلوك الإنسان من رغبة في التواصل مع المجتمعات التي يحيا بينها، والتي تضطره ظروف الحياة على معايشتها ومشاركتها في السراء والضراء... إلاّ انه -في عمق أعماقه- جزيرة منعزلة في محيط بشري عارم، وزورق متفرد فوق بحر إنساني عاصـف، وشخصية متوحدة حادة الإحساس بذاتيتها، وعالم خـاص عميـق الـشعور بخصوصيته. فمهما تعددت واتسعت علاقات الإنسان الاجتماعية والإنسانية مع الناس الذين يعاشرهم ويتعامل معهم يظل إحساسه بالوحدة والتفرد مسألة تؤرق حياته، ويبقى شعوره بالغربة أمرا ملازما له في كل زمان ومكان.

ومع أن السماوات والأرض خلقت من أجل الإنسان، وزينت وجملت له، وان حوارا صامتا، وحديثا خافتا ما زال يدور بين الإنسان والكون لتـسليته وتبديـد وحشته، وتأنيس غربته، إلاّ أن إحساس الإنسان بالغربة يظل قائما، ما دام يعرف الكون ويجهل المكون، وما دام يعرف الدار ويتناسى رب الدار، ويظل ضائعا تائها في بوادي الدنيا ومفازات العالم ما دام لا يسمع الحادي، ولا يتبع الدليل.

والإنسان نزل بـ"دار الغربة" هذه، وفي روحه حنين ملتاع إلى العالم الجميل الطاهر الذي هبط منه، وفي قلبه شوق مضن لجنان الخلود التي اخرج منها، فـلا

شيء -إذن- يمكن أن يسليه أو يعزيه عن هذا الفراق المؤقت إلا "ذكر" مقيم و "تفكر" لا يريم.

لذا فان ”مفاتيح هذا السير القلبي ووسائل التحرك الروحاني إنْ هي إلاّ "ذكر الله" و"التفكر"“ كما يقول النورسي.

وقلما تستطيع المجتمعات رغم كل وسائل التسلية والمسرات التي تقدمها للأفراد أن تخفف عن هذا "الفرد" أثقال الحياة وهموم العيش، وما يكتنف عمره من آلام وأحزان، وما يصيبه من أمراض وأوجاع، وهي لا تنجح إلا مع القلة القليلة من الحزانى والبائسين.

يقول النورسي:

”إما انهم يحيون منفردين بين الجبال والوديان، أو ساقتهم هموم العيش إلى أماكن نائية موحشة، أو ابتلوا بالمصائب أو الشيخوخة النذيرة بالآخرة.. فهؤلاء جميعاً يظلون محرومين من الأنس فلا يأنسون ولا يجدون العزاء بوسائل المجتمع الحضارية!.. لذا فالسلوان الكامل لأمثال هؤلاء، والأنس الخالص لهم ليس إلا في تشغيل القلب بوسائل الذكر والتفكر.. ففي الأصقاع النائية، وبين شعاب الجبال، وعبر مهاوي الوديان يتوجه إلى قلبه مردداً: "الله.. الله" مستأنساً بهذا الذكر، ومتفكراً فيما حوله من الأشياء التي يتوجس منها خيفة وتوحي إليه بالوحشة، فإذا بالذكر يضفي عليه الأنس والمودة، وإذا بالذاكر يقول: إن لخالقي الذي اذكره عبادا لا حد لهم منتشرين في جميع الأرجاء فهم كثيرون جداً.. إذن فأنا لست وحيداً، فلا داعي للاستيحاش، ولا معنى له.. وبذلك يذوق معنى الأنس في هذه الحياة الإيمانية، ويلمس سعادة الحياة فيزداد شكره لربه..“.

الفصل الثالث

الولاية حجة الشريعة

إذا كانت "التجربة" وسيلتنا للوصول إلى "اليقين" في حقائق العلوم المختلفة، فان "التجربة" أيضاً كانت -عبر تاريخ الإيمان- سبيل المؤمنين في الوصول إلى اليقينيات في العلوم الإيمانية التي جاءت بها "الرسالة والشريعة".

فالألوف المؤلفة من الأنبياء والأولياء، والصالحين الأتقياء، دخلوا "التجربة" وخاضوا أهوالها، وعانوا آلامها، واجتازوا قفارها، ولكنهم وصلوا -في خاتمة المسير- وشاهدوا وشربوا وذاقوا، ثم تكلموا من هذا المقام، فإذا كلامهم من شهد المشاهدة يسيل، وإذا أقداحهم من رضاب شرابهم تفيض، وإذا وصفهم من صفاء أذواقهم يجري كالسلسبيل، وإذا "الرسالة والشريعة" حق ويقين أعظم من كل حق، وأعلى من كل يقين، فلو قيل للرسالة:

أين حجتك ؟

لأجابت دون تردد:

إن الولاية حجتي، والطريقة برهان شريعتي.

ذلك كما يقول النورسي:

"إن الولاية حجة الرسالة، وان الطريقة برهان الشريعة، ذلك لان ما بلغته

الرسالة من الحقائق الإيمانية تراها "الولاية" بدرجة "عين اليقين" بشهود قلبي وتذوق روحاني فتصدّقها، وتصديقها هذا حجة قاطعة لأحقية الرسالة.

وإن ما جاءت به "الشريعة" من حقائق الأحكام، فإن "الطريقة" برهان على أحقية تلك الأحكام، وعلى صدورها من الحق تبارك وتعالى بما استفاضت منها واستفادت بكشفياتها وأذواقها".

لأن "الولاية والطريقة" سبيلها "الرسالة والشريعة" فلا تصح هذه ما لم تصح تلك.

ويمضي النورسي قائلا:

"نعم، فكما أن "الولاية والطريقة" هما حجتان على أحقية "الرسالة والشريعة" ودليلان عليهما، فانهما كذلك سر كمال الإسلام، ومحور أنواره، وهما معدن سمو الإنسانية ورقيها ومنبع فيوضاتها بأنوار الإسلام وتجليات أضوائه".

ولا يحق لأولئك الذين لم يدخلوا "التجربة" ويتحققوا من نتائجها، وينهلوا من مناهلها أن ينكروا على الآخرين ممن جرب وتحقق وذاق، ما يروهم في "طريقهم" من أنوار وما يحسونه من إشراقات تغمر القلب وتملأ الروح بالأنس والانتشاء. ومن الخطأ، كما يقول النورسي أن: "انحاز قسم من الفرق الضالة إلى إنكار أهميتهما، فحرموا الآخرين من أنوار هم محرومون منها".

وينبغي أن نزن "أهل طريق الولاية" بميزان "العدالة الإلهية"لكي نستطيع أن نحكم لهم أو عليهم، فما هو هذا الميزان الإلهي، وكيف يزن وكيف يحكم ؟

يقول النورسي: إن "الله تعالى يظهر عدالته الربانية في الآخرة وفق موازنة الأعمال وتقويمها، برجحان الحسنات أو السيئات، فمن رجحت حسناته وثقلت، فله الثواب الحسن وتقبل أعماله، ومن رجحت سيئاته

وخفت حسناته فله العقاب وتُردّ أعماله، علما انه لا تؤخذ "كمية" الأعمال بنظر الاعتبار في هذه الموازنة وإنما ينظر إلى "النوعية". فربّ حسنة واحدة ترجح ألف سيئة بل قد تذهبها وتمحوها وتكون سبباً في إنقاذ صاحبها.

فما دامت العدالة الإلهية تحكم على وفق هذا الميزان، وان الحقيقة تراها عين الحق، فلا ريب أن حسنات الطريقة التي هي ضمن دائرة السنة المطهرة لهي ارجح من سيئاتها".

وينبه "النورسي" مرة أخرى، إلى الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس، حيث يقول: "انه لا يمكن أن تدان "الطريقة" ولا يحكم عليها بسيئات مذاهب ومشارب أطلقت على نفسها ظلماً اسم "الطريقة" وربما اتخذت لها صورة خارج دائرة التقوى بل خارج نطاق الإسلام".

ثم يمضي النورسي في تبيان فوائد "الطريقة" فيقول:

"فلو صرفنا النظر عن النتائج السامية التي تُوصل إليها الطريقة سواء منها الدنيوية أو الأخروية أو الروحية، ونظرنا فقط إلى نتيجة واحدة منها ضمن نطاق العالم الإسلامي نرى أن "الطريقة" هي في مقدمة الوسائل الإيمانية التي توسع من دائرة الاخوة الإسلامية بين المسلمين وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي".

وللطرق الصوفية المنبثة في أرجاء العالم الإسلامي فضل كبير في الحيلولة دون وقوع هذا القطر أو ذاك في أيدي الأعداء من المستعمرين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، وإلى هذه الحقيقة التاريخية، يشير النورسي بقوله:

"وقد كانت الطرق الصوفية وما زالت كذلك إحدى القلاع الثلاث

التي تتحطم على جدرانها الصلدة هجمات النصارى بسياساتهم ومكايد الذين يسعون لإطفاء نور الإسلام.. فيجب ألاّ ننسى فضل أهل الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإســلامية "استانبول" طوال خمسمائة وخمسين سنة رغم هجمات عالم الكفر وصليبية أوروبا. فالقوة الإيمانية، والمحبة الروحانية، والاشواق المتفجرة من المعرفة الإلهية لأولئك الذين يرددون "الله.. الله.." في الزوايــا والتكايــا المتممة لرســالة الجوامع والمســاجد، والرافــدة لهما بجداول الإيمان حيث كانت تنبعث أنوار التوحيد في خمســمائة مكان، لتشــكّل بمجموعها أعظم نقطة ارتكاز للمؤمنين في ذلك المركز الإسلامي. وقــد اســتطاعت فعلا أن تحمي (اسطنبول) من السقوط في أيدي أعداء الإسلام، وظلت محتفظة بطابعها الإسلامي تتحدى أعاصير الحاقدين الهوجاء“.

الفصل الرابع

الطريق . . سهلها وحزنها

كثيرون من الذين يتهاوون متعبين -من السائرين في طريق الولاية- في أول الطريق أو وسطها، أو آخرها، وكثيرون هم الناكصون على أعقابهم من الذين بعدت عليهم الشقة، ونفد صبرهم، وقل احتمالهم، وكثيرون هم الذين يضلون عن الطريق -شعروا بذلك أم لم يشعروا- فَيَضِلُونَ ويُضِلُونَ... يقول النورسي:

> "إن سلوك طريق الولاية مع سهولته هو ذو مصاعب، ومع قصره فهو طويل جداً، ومع نفاسته وعلوه فهو محفوف بالمخاطر، ومع سعته فهو ضيق جداً".

وأهم ما ينبغي للسائر أن يعرفه هو خط سيره، ونقطة انطلاقه، من أين يبدأ خطوته الأولى ؟ ومن أين ينبعث في انطلاقه ؟ وكيف يكون ذلك ؟

وثمة طريقان لا ثالث لهما يسلك السالكون، ويسيران فيهما السائرون، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت : ٥٣).

ويعرفهما النورسي حيث يقول: "هناك "السير الأنفسي" و"السير الآفاقي" وهما نهجان في "الطريقة"".

ويمضي موضحا فيقول:

"فالسير الأنفسي يبدأ من النفس، ويصرف صاحب هذا السير نظره عن الخارج، ويحدق في القلب مخترقاً أنانيته. ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلاً إلى الحقيقة.. ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منورة بنور قلبه، فيصل سريعاً، لان الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس اكبر في الآفاق. واغلب طرق المجاهدة الخفية تسير وفق هذه السبيل.

وأهم أسس هذا السلوك هو كسر شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى وإماتة النفس".

ثم ينتقل إلى بيان خصائص النهج الثاني فيقول:

"أما النهج الثاني فيبدأ من الآفاق، ويشاهد صاحب هذا النهج تجليات أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة ثم ينفذ إلى دائرة النفس، فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغرة في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب اقرب طريق إليه تعالى، ويشاهد أن القلب حقا مرآة الصمد. فيصل إلى مقصوده، ومنتهى أمله. وهو الله جل وعلا..".

ولهذين النهجين مخاطر ومهالك ينبغي للسالكين أن ينتبهوا إليها، ويقوا أنفسهم من الوقوع فيها والتردي في مهاويها، وعلة العلل، وسبب كل مهلكة:

"إنما هي (النفس الأمارة) التي بين جنبينا، فان عجز السالك عن قتل النفس الأمارة، ولم يتمكن من تحطيم الأنانية بترك الهوى، فانه يسقط من مقام الشكر إلى موقع الفخر، ومنه يتردى إلى الغرور".

والسالك الذي تصحبه "نفسه"، وتلازمه في سيره، والذي لم يخلعها عنه، ويلق

بها وراء ظهره، إذا ما تعرض –هذا السالك– لنفحات الحق، وجـــذبات المحبـــة، فشرب بعد ظمأ، وانبسط بعد قبض، وسكر بعد صحو، ربما ''فسوف يصدر عنه دعاوى اكبر من حده، واعظم من طوقه، تلك التي يطلق عليهـــا "الـــشطحات". فيضر نفسه ويكون سبباً في الأضرار بالآخرين''. من تلامذهم ومريدهم.

ولكن، هذه الدعاوى، أهي مفتعلة، تصدر عن أصحابها وهم يعلمون أنهـــا دعاوى لا سند لها من الصدق والحق ؟ أم أنهم يصدرون في دعاواهم عن شعور عميق بصدق ما يحسون ؟

يجيب النورسي قائلا:

''ولكنه –أي صاحب الدعاوى– يرى نفسه كما يصف، ويراها كما يقول، محقا في رؤيته. حتى أنني رأيت من يتقلد شارات القطب الأعظم ويدعي حالاته، ويتقمص أطواره، وليس له من صفات القطبية إلا انتباه القلب وصحوته، وسوى الشعور بسر الولاية من بعيد، فقلت له:

يا أخي! كما أن قانون الســـلطنة له مظاهر عديدة جزئية أو كلية على نمط واحد في جميع دوائر الدولة، ابتداء من رئاســـة الوزارة إلى إدارة ناحية صغيرة، فـــان الولاية، والقطبية كذلك لها دوائـــر مختلفة ومظاهر متنوعة، ولكل مقام ظـــلال كثيرة. فأنت قد شـــاهدت الجلوة العظمى والمظهر الأعظم للقطبية الشبيهة برئاسة الوزارة ضمن دائرتك الصغيرة الشبيهة بإدارة الناحية، فالتبس عليك الأمر وانخدعت، إذ إن ما شاهدته صواب وصدق، إلاّ أن حكمك هـــو الخطأ، حيث إن غرفة من الماء بالنسبة للذبابة بحر واســـع. فانتبه ذلك الأخ بكلامي، ونجا من تلك الورطة بمشيئة الله''.

ويمضي النورسي يحدثنا عن بعض أولئك الذين التقاهم في الطريق إلى الله، ويخبرنا بأنه التقى أناسا يكاد يصرح الواحد منهم بأنه إنْ لم يكن هو "المهدي" فهو في الأقل في طريقه إلى أن يكون "مهدي" العصر، ثم يعلق قائلا:

"هؤلاء ليسوا كاذبين ولا مخادعين، ولكنهم ينخدعون، إذ يظنون ما يرونه هو الحق، ولكن كما أن الأسماء الحسنى لها تجلياتها ابتداء من العرش الأعظم وحتى الذرة، فان مظاهر هذه التجليات في الأكوان والنفوس تتفاوت بالنسبة نفسها، وان مراتب الولاية التي هي نيل مظاهرها والتشرف بها هي الأخرى متفاوتة.

ولكن هل يدان صاحب مثل هذه الدعاوى أو الشطحات ؟ ومتى يدان؟ وكيف ؟".

يجيب النورسي قائلا :

"فإنْ كانت الأنانية فيه قد مُحقت حتى لم يعد لها استشراف وتطلع لحب الجاه والتفاخر على الآخرين فلا يُدان، ونعتبر دعاواه الخارجة عن حده "شطحات" قد لا يكون مسؤولا عنها، ويمكن التجاوز عنها.

أما هذه الدعاوى عند الشخص الذي ما زالت الأنانية فيه متوفزة، متطلعة لحب الجاه، فستغلبه هذه الأنانية وتأخذ بيده إلى منازل الفخر مخلفاً وراءه مقام الشكر، ومن هناك يتردى تدريجياً إلى هاوية الغرور الماحق للحسنات".

ومصير مثل هذا الإنسان كما يتوقع له النورسي:

"إما أن يتردى إلى الجنون، أو يضل ضلالاً بعيداً، وذلك لأنه جعل نفسه في عداد أولئك الأولياء العظام، وهذا بحد ذاته سوء ظن بهم، لأنه

يخلع مـــا في نفسه من قصور، تدركه النفس مهما اغترت على أولئك الأولياء الأفذاذ الذيـــن يراهم بمنظار نفسه القاصرة، فيتوهم أن أولئك العظام مقصرون مثله، فيقل احترامه لهم، وبالتالي قد يقل احترامه حتى للأنبياء عليهم السلام".

وينصح النورسي المبتلين بمثل هذا البلاء:

"أن يمسكوا ميزان الشريعة بأيديهم ليزنوا أعمالهم، ويقفوا عند حدود ما حده علماء أصول الدين من دســـاتير، ويسترشدوا بتعليمات الإمام الغزالي والإمام الربـــاني وأمثالهم من الأولياء المحققين العلماء، وان يضعوا أنفسهم دائماً موضع التهمة، ويعرفوا أن القصور والعجز والفقر ملازم للنفوس مهما ارتقت وتسامت".

فيبرأوا عندئذ من دعاواهم وشطحا تهم، ويرجعوا إلى مقام الشكر فيشكروا الله على ما انعم عليهم من نعم الطاعة والإحسان.

ومعظم ما نقرأه أو نشاهده من "شطحات عند بعض السالكين، منبعه حب النفس، حتى ليتعاظم هذا الحب فيظن الواحد منهم صفاء نفسه، ولمعان ذاته قطعة الماس رغم أنها ليست إلاّ قطعة زجاج تافهة في الحقيقة".

ولا يقف الأمر في بعضهم عند هذا الحد، وربما تردى إلى مهلكة من أخطر المهالك، فيرى – كما يخبرنا النورسي:

"أن المعاني الجزئية التي ترد على قلب السالك بشكل الهام، يتخيلها – هذا السالك– كلام الله، ويعبر عن كل الهام وارد بـــ"آية" فيمتزج بهذا الوهم عدم احترام لتلك المرتبة السامية العليا للوحي".

ويردف النورسي قائلا:

”نعم إن كل الهام ابتداء من الهام النحل والحيوانات إلى الهام عوام الناس والى الهام خواص البشرية، والى الهام عوام الملائكة، والى الهام المقربين الخواص منهم، إنما هو نوع من الكلمات الربانية، ولكن الكلام الرباني تجلي الخطاب الربـــاني المتنوع المتلمع من خلال ســـبعين ألف حجاب حسب قابليات المظاهر والمقامات.

أما "الوحي" فهو الاســـم الخاص لكلام الله جـــل وعـــلا، وابهر مثاله المشخص، هو الذي أطلق على نجوم القرآن، وكل منجمة منه "آية" كما ورد توقيفاً. فتسمية هذه الأنواع من الإلهام بـــ (الآيات) خطأ محض. إذ بمقدار النسبة بين صورة الشمس الصغيرة الخافتة المتسترة المشاهدة في المرآة الملونة في أيدينا مع الشمس الحقيقية الموجودة في الســـماء، تكون النسبة بين الإلهـــام الموجود في قلوب أولئك الأدعياء وبين آيات شمس القرآن الكريم التي هي كلام إلهي مباشـــر (كما بينا وأثبتنا ذلك في كل من الكلمات الثانية عشرة والخامسة والعشرين والحاديـــة والثلاثين من كتاب "الكلمات").

نعم: إذا قيل إن صورة الشمس الظاهرة في مرآة هي صورتها حقاً وذات علاقة مع الشمس الحقيقية، فهذا الكلام لا غبار عليه وهو حق، إلاّ انه لا يمكن ربط الكرة الأرضية الضخمة بهذه الشموس "المرآتية" المصغرة، ولا يمكن شدها إلى جاذبيتها“.

الفصل الخامس

وحدة الوجود

لكل فكرة روح تحيا به، وجمال خفي أو ظاهر هو قوام وجودهـــا، والـــزاد الذي تقتات عليه، وتعيش به.

والشعراء هم اقدر الناس على ملامسة روح الأفكـــار، وأقـــدرهم علـــى الإحساس بجمالها المستور، والإبداع في تصويره والتعبير عنه.

وبعض الأفكار تبدو جافة يابسة في تصور العقل، وحكم المنطق، حـــتى إذا تناولها شاعر عظيم رقت وشفت، وجاءت تختال بحلل الجمال، وإبراد الـــسحر الحلال، فتشد وتأسر.

ومن الناس من عاش ومات وهو أسير جمال فكرة ما، ولم يرغب قط –طوال حياته– أن يتمرد على أسره، أو يسعى لفك قيده.

والصوفية هم شعراء "التوحيد" إن صح التعبير، وهم –بلا جـــدال– أقـــدر المؤمنين على الارتقاء إلى روح "التوحيد" والاستغراق في أنواره، والانغمـــار في بحار جماله، ومن ثمة الإبداع في تصويره والتعبير عنه.. غير أن البعض منهم –وهو في قمة التوحيد الخالص– يهوي منتشيا من هذه القمة – ليقع أسير جمال فكـــرة "وحدة الوجود" وسحرها، التي تنطوي أيضاً على "وحدة الشهود".

وفكرة "وحدة الوجود"كما يفسرها لنا النورسي هي:

”من المشارب الصوفية المهمة...“ ويرجى الانتباه جيدا إلى كلمة "مشرب" التي سترد كثيرا في ثنايا حديثه عن هذه الفكرة، فهو يرمي من وراء هذه الكلمة الإيحاء إلى القارئ بأن "وحدة الوجود" نزعة ذوقية جمالية، تفقد جمالها وسحرها ومعقوليتها عند الذين يحاولون تقديمها للآخرين كمذهب عقلي فلسفي يحكمه منطق العقل، وتقيده قواعد الذهن.

ويعني هذا المشرب كما يراه النورسي:

”حصر النظر في وجود "واجب الوجود"، أي أن الموجود الحق هو: "واجب الوجود" سبحانه فحسب، وان سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال "واجب الوجود" لذا فان أهل هذا المشرب يذهبون إلى اعتبار الموجودات خيالا ووهماً، ويتصورونها عدما في مرتبة ترك ما سواه، أي: "ترك ما سوى الله تعالى" حتى انهم يتطرفون ويذهبون إلى حد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى.

إن أهم حقيقة يحتويها هذا المشرب هي: أن الموجودات الممكنة "الممكنات والمخلوقات" تصغر وتتضاءل عند أصحابها من كبار الأولياء الذين وصلوا إلى مرتبة حق اليقين بقوة إيمانهم بحيث تنزل عندهم إلى درجة العدم والوهم، أي انهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله تعالى الذي هو واجب الوجود“.

وعند هذه النقطة بالذات -من هذا المشرب- تقوم تساؤلات، وتنجم عقبات وتنكشف جملة من الحقائق الدينية ينبغي تفسيرها وإلقاء الضوء عليها قبل

المضي في هذا المشرب إلى نهايته، وقبل السقوط في المحاذير والمخاطر، وذلك لان هذا "المشرب" ينتزع أصحابه والمستغرقين فيه من صحواتهم العقلية، ويحلق بهم على جناح اللذة والانتشاء بعيدا عن أصول الإيمان وأركانه الستة المعروفة، وهذه الأركان – توجب على المؤمنين الاعتقاد بوجود الأشياء الممكنة وأنها ليست وهما ولا خيالا.

يقول النورسي:

"فهذه الأركان تستدعي وجود الممكنات أي أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي".

وهو ينصح ويحذر صاحب هذا المشرب:

"ألاّ يصحب معه هذا المشرب، وألاّ يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة ".

ومن الخطأ والخطر أن يمضي الرجل مع مشربه هذا في حال صحوه، وعليه – كما يقول النورسي–:

"ألاّ يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لان الدساتير العقلية. والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين لا يمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه. لذا فلا يرى هذا المشرب في أهل الصحوة الإيمانية من الخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين من أجيال السلف الصالح من هذه الأمة، إذن فليس هذا المشرب في أعلى المراتب واسماها، بل قد يكون ذا علو إلاّ انه ناقص في علوه، وقد يكون ذا حلاوة مغرية ولكنه لاذع المذاق. ولظاهر حلاوته،

ولجمال إيحائه لا يرغب الداخلون فيـــه في الخروج منه؛ ويتوهمون – باستشرافات نفوسهم- أنه أعلى المراتب واسماها".

"إن هذا المشرب يصلح لأخص الخواص عند حالات الاستغراق المطلق، وللمتجردين من الأسباب المادية، ومن الذيـــن قـــد قطعوا علائقهم بما سوى الله من الممكنات والأشياء".

"ولكن إذا نزل هذا المشرب من علياء الأذواق والمواجيد، والأشواق القلبية إلى دائـــرة المذاهب الفكرية والعلمية وعرض بشكله العلمي والعقلاني على أنظار الذين استهوهم الحياة الدنيا، وغرقوا في الفلسفات المادية والطبيعية، فإنه ســيكون إغراقاً في الطبيعة والمادة، وإبعاداً عن حقيقة الإسلام".

ويمضي النورسي موضحا فيقول:

"فالشخص المادي المتعلق بالأسباب، والمغرم بالدنيا، يتشوق إلى إضفاء صفة الخلود على هذه الدنيا الفانية، لأنه يعز عليه أن يرى محبوبته وهي تتبخر بين يديه وتذوب، فيسبغ صفة البقاء والوجود الدائم على دنياه، انطلاقاً من فكرة "وحدة الوجود" فلا يتورع -عندئذٍ- من رفع محبوبته -الدنيا- إلى درجة المعبود بعد أن اسبغ عليها صفات الدوام والخلود والبقاء الأبدي، فينفتح المجال أمامه إلى إنكار الله سبحانه والعياذ بالله".

واحتمال الوقوع في هذه الورطة وارد كما هو مشاهد عند بعض فلاسفة الغرب من الوجوديين وغيرهم من الماديين ولا سيما في هذا العصر.

ويحدثنا النورسي موضحا خطورة هذا المذهب على ذوي النـــزعات المادية فيقول:

"ولما كان الفكر المادي قد ترسخت دعائمه في هذا العصر، واستولى على غالبية النشاطات العقلية والعلمية، حتى غدت المادة -عند أصحابه- هي اصل كل شيء ومرجعه، لذا فان ترويج مذهب "وحـــدة الوجود" في هذا العصر -الذي يرى فيه أهـــل الإيمان الخواص الماديات تافهة إلى حد العدم- ربما يعطي للماديين حجة ليكونوا دعـــاة للمذهب نفسه فيخاطبوا أصحابه من أهل الإيمان: "نحن وانتم ســـواء، نحن أيضاً نقول هكذا ونفكر هكذا" علما انه لا يوجد مشرب في العالم بعيد عن منهج الماديين وعبدة الطبيعة من مشرب "وحدة الوجود". ذلك لان أصحابه يؤمنون بالله إيماناً عميقاً إلى درجة يعدون الكون وجميع الموجودات معدوماً بجانب حقيقة الوجود الإلهي، بينما الماديون يولون الموجودات من الأهمية إلى حد انهم ينكرون معها وجود الله سبحانه وتعالى.. فأين هؤلاء من أولئك ؟!".

ويلخص النورسي أضرار نشر هذا المشرب في الوقت الحاضر بما يأتي:

"الضرر الأول:

إن مشرب وحدة الوجود، مع انه في حكم إنكار وجود الكائنات إزاء وجود الله سبحانه، إلاّ أنه كلما دخل بين العوام يمضي بهم إلى أن يصل في فكر الغافلين منهم ولاسيما الملوثين بالماديات إلى إنكار الألوهية إزاء الكون والماديات.

الضرر الثاني:

إن مشرب وحدة الوجود، يردّ رداً شـــديداً ربوبية ما سوى الله تعالى، حتى انه ينكر ما ســـواه تعالى ويرفع الثنائية، فلا يرى وجوداً مستقلاً

للنفس الأمّارة ولا لأي شيء كان، ولكن في هذا الزمان، الذي استولت فيه مفاهيم الطبيعة وتفرعنت نفوس أمارة وبخاصة من له استعداد ليتخذ نفسه معبوده من دون الله، ونفخ الغرور والأنانية في أوداجه، فضلا عن نسيان الخالق والآخرة إلى حـــد ما. فتلقين هؤلاء بوحدة الوجود يطغي نفوسهم حتى لا يسعها شيء، والعياذ بالله.

الضرر الثالث:

إنه يورث أفكارا وتصورات لا تليق بوجوب وجود الذات الجليلة، المنـــزهة المبرأة المتعالية المقدسة عن التغير والتبدل والتجزؤ والتحيز، ولا تلائم تنـــزهه وتقدسه سبحانه بحال، فيكون بذلك سببا لتلقينات باطلة.

نعم! إن من يتكلم عن وحدة الوجود عليه أن يعرج فكراً من الثرى إلى الثريا تاركاً الكائنات وراءه ظهريا، محدقاً بنظره إلى العرش الأعلى، عاداً الكائنات معدومة في حالة الاســـتغراق، فيمكنه أن يرى بقوة الإيمان أن كل شيء من الواحد الأحد ســـبحانه مباشرة. وإلاّ فإن من يقف وراء الكائنات وينظر إليها ويرى الأســـباب أمامه وينظر من الأرض، فإنه يحتمل أن يغرق في تأثير الأسباب ويقع في مستنقع الطبيعة، بينما الذي يعرج فكراً إلى العرش كجلال الدين الرومي[1] يستطيع أن يقول: "افتح سمعك فانك تستطيع أن تسمع من كل أحد –كأنه حاك فطري– ما

(١) الرومي (مولانا جلال الدين): (٦٠٤- ٦٧٢هـــ) (١٢٠٧- ١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية والخلاف وانواع العلوم، ثم متصوف صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية المستغني عن التعريف في ســـتة وعشرين ألف بيت، وصاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (بفارس) استقر في (قونيا) سنة ٦٢٣هــ عرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٨ هـــ، من مؤلفاته: ديوان كبير، فيه ما فيه، مكتوبات.

تسمعه من الحق تعالى". وإلاّ فمن لا يستطيع العروج مثله إلى هـــذه المرتبة الرفيعة ولا يرى الموجودات من الفرش إلى العرش على صـــورة مرايا (لتجلياته) إن قلت له:

"اصغ إلى كل أحد تســـمع منه كلام الله" فانه يبتلى بتصورات باطلة مخالفة للحقيقة كمن يهوي معنىً من العرش إلى الفرش.

﴿قُلِ الله ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوضِهِمْ يَلعَبون﴾ (الأنعام: ٩١).

ما للتراب ولرب الأرباب.

ســـبحان من تقدس عن الأشـــباه ذاته وتنـــزهت عن مشابهة الأمثال صفاته وشهد على ربوبيته آياته جل جلاله ولا إله إلاّ هو". [١]

وسنختم هذا الفصل بما فصله النورسي من مراتب "وحدة الوجود والسبب الذي أدى ليكون هذا المشرب منشأ للأوهام الباطلة -على أمل العودة إليـــه في الفصل العاشر- فيقول:

"انـــه اســـتغراق في التوحيد، وتوحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر؛ إذ إن شدة الاستغراق في التوحيد -بعد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية- يُفضي إلى وحـــدة القدرة، أي: لا مؤثر في الكون إلاّ الله. ثم يؤدي هذا إلى وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى "وحدة الشهود" ثم إلى "وحدة الوجود". ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤيـــة موجود واحد.. فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلاً على هذا المذهب. فالذي لم تتخلص روحهُ من تأثير الأسباب و لم تتجرد من دائرتها إذا ما تكلم عن وحدة الوجود يتجاوز حدّه. والذين

(١) اللمعات ص ٤٤٣-٤٤٤

يتكلمون به إنما حصروا نظرهم في "واجب الوجود" حصراً بحيث تجرّدوا عن الممكنات فاصبحوا لا يرون إلاّ وجوداً واحداً بل موجوداً واحداً.. نعم، إن رؤيـــة النتيجة ضمن الدليل، أي رؤيـــة الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شيء ذوقي ولا يمكن بلوغها إلاّ باســـتغراق ذوقي. فإدراك حقيقة جريان التجليات الإلهية في جـــداول الأكوان، وســـريان الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤية تجلي الأسماء والصفات في مرايا الموجودات.. أقـــول: إن إدراك هـــذه الحقائق أمرٌ ذوقي. إلاّ أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبّروا عن هـــذه الحقيقة بالألوهية السارية والحياة الســـارية في الموجودات، وحينما حصر أهل الفكر والعقل هـــذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة.

ثم إن ما لدى الفلاسفة الماديين ومن وهنت عقيدهم من المفكرين من مذهب "وحدة الوجود" وما لدى الأولياء منه بوناً شاسعاً وفروقاً كثيرة بل الهما متضادان ونقيضان. فهناك خمسة فروق بينهما:

الفرق الأول: إن علماء الصوفية قـــد حصروا نظرهم في "واجب الوجود" واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم حتى أنكروا وجود الكائنات و لم يعودوا يرون في الوجود إلاّ هو. أما الآخرون (الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان) فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن أدراك الألوهية بل أوْلَوا المادة أهمية عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلاّ المادة بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة بل استغنوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات.

الفرق الثاني: إن ما لدى الصوفية من وحدة الوجود تتضمن وحدة الشهود في حين ما لدى الآخرين يتضمن وحدة الموجود.

الفرق الثالث: إن مسلك الأوليـــاء مسلك ذوقي بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي.

الفرق الرابع: يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظراً تبعياً ثانوياً إلى المخلوقات بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولاً وبالذات في المخلوقات.

الفرق الخامس: إن الأولياء عبّاد الله ومحبوه بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فأين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة.

تنوير:

لـــو افترض -مثلاً- إن الكرة الأرضية قـــد تشكلت من قطع زجاجية صغيرة جداً ومختلفة الألوان، فلا شك أن كل قطعة ستستفيض من نور الشمس حسب تركيبها وجرمها ولونها وشكلها.

فهذا الفيض الخيالي ليس الشمس بذاتها ولا ضياؤها بعينه.

فلو نطقت ألـــوان الأزهار الزاهية المتجددة والتي هي تجليات ضيـــاء الشمس وانعكاسات ألوانه السبعة، لقال كل لون منها:

إن الشمس مثلي. أو أن الشمس تخصّني أنا..

ولكن مشرب أهل وحدة الشهود هـــو: الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل وحدة الوجود هـــو: الفناء والسكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز".

ثم يختم قوله بالحديث الشريف الذي يحسم كل موضوع يطرق من هـذا القبيل وهو: (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا)[1]

حقيقة المرء ليس المرء يدركُهَا
فكيف كيفيـة الجبـار ذي القدم
هو الذي أبدع الأشياءَ وأنشأها
فكيف يُدركهُ مستحدثُ النَّسَمِ [2]''.[3]

* * *

(١) انظر: الأوسط للطبراني ٦٤٥٦؛ السنة للالكائي ١/١١٩/١-٢؛ الشعب للبيهقي ١/٧٥؛ المجمع ١/٨١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/٦٦ - ٦٧.

(٢) ينسب الى الامام علي كرّم الله وجهه - ديوان الامام علي ص ١٨٥ - بيروت.

(٣) المثنوي العربي النوري ص ٤٣٢-٤٣٤.

الفصل السادس

طريق الولاية الكبرى

النقطة الأولى: طريق السنة النبوية

لما كانت "الذات المحمدية الشريفة" هي مهبط القرآن، وموضع تنزلاته، ومكمن أسراره، ومنتدى أحكامه، فلا جرم أن تغدو "السنة" حكما مرآة القرآن، وبحر كنوزه، وخزينة لآلئه، ولسان حكمته، وموئل حكمه، وملاذ علمه.

والمؤمن يحيا بين كونين كبيرين عظيمين:

كون يحيط به من أرجائه بأرضه وسماواته، وأجرامه ومجراته، وشموسه وأقماره، وليله ونهاره...

وكون أكبر وأعظم، وأسمى وأعلى، هو القرآن الكريم، لأنه معنى كل كون كان أو يكون، ومغزى كل وجود وجد أو يوجد، وسر كل خلق معلق بين الكاف والنون.

والسنة النبوية الشريفة هي ملتقى الكونين، ومجمع البحرين، وبرزخ ما بين العالمين، فليس من السنة في شيء ان يطغى واحد من الكونين على ذات المسلم فيزيح الآخر، فلا يكاد يراه أو يحس به، ولكن السنة لا تغرق المسلم في الأكوان حتى ينسى الله، أو يغرقه كون القرآن بأسرار توحيده فينكر كل كون عداه.

والسالكون الذين يريدون الوصول إلى مرتبة الولاية ينصحهم النورسي قائلا:

> ”إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغنـــاها. والاتباع يعني: تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاســـتهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله.“.

لماذا ؟

لان المتحرين للسنة من السالكين، ير فدهما الكتابان العظيمان -القرآن والكون- بالعطاء ويمدهما العالمان بالقوة، وتسندهم وتأخذ بأيديهم في طريق الولاية نواميس الله في كونيه، وتنير لهم أنواره جل وعلا في كتابيه، وبهذا تتحول ”أعمال المسلم اليومية ومعاملاته العرفية, وتصرفاته الفطرية الاعتيادية إلى عبادة“.

فيمضي هذا المسلم يومه في عبادة، وينفق أنفاسه في ذكر الله.

ويمضي النورسي قائلا:

> ”إن اتباع السنة وتحري شـــرع الله في شـــؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكّر الشرع هـــذا يؤدي إلى ذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكر الله سبحانه، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه. أي إن ساعات العمر ودقائقه يمكن أن تنقضي كلها في عبادة دائمة مطمئنة.لذلك فان اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح“.

النقطة الثانية: الإخلاص والمحبة

لا يمر "العمل" في طريقه إلى "الله" سبحانه وتعالى إلاّ إذا كان معه "جـــواز مرور"، وجواز مروره "الإخلاص" لله فيه.

أما العمل الذي لا إخلاص فيه، فانه يقف عند حدود الأرض، ولا يسمح حراس السماء من ملائكة الله بمروره، أو الارتفاع به إلى عليين.

ويقبل العمل، ويخلد، ويجد مكانه في كنف الله على قدر ما فيه من مذاب الإخلاص في قلب المؤمن، ومسيل الصدق في روحه، وإكسير التوحيد الخالص من إشراك الشرك في ضميره.

ولكن ينبغي الانتباه إلى انه ليس في طاقة إنسان أن يؤدي عملا يتقرب به إلى الله إلاّ إذا أسبغ عليه الله نعمته مسبقا، ونشر فوقه رحمته أولا، وأمده من لدنه بالعون والقوة والمساعدة قبل كل شيء.

فمن رأى الله في عمله، قبل عمله، خلص من الشرك والرياء.

ومن رأى نفسه فيه، وشاهد حوله وقوته من خلاله، رد عليه و لم يقبل منه، وهو لنفسه، أو للشريك الذي أشركه مع الله فيه.

ومن عرف الله في عمله، أحب الله وشكره وأخلص له، فالإخلاص والمحبة هما معراج المؤمن إلى الله، وسبيله إلى الولاية والاصطفاء.

والنورسي -رحمه الله- يقرر بأن "الإخلاص هو أهم أساس لجميع طرق الولاية وسبل الطريقة، ذلك لان الإخلاص هو الطريق الوحيد للخلاص من الشرك الخفي. فمن لم يحمل إخلاصاً في ثنايا قلبه فلا يستطيع أن يتجول في تلك الطرق، كما أن "المحبة" تشكل أمضى قوة في تلك الطرق".

وإن كان "الإخلاص" -كما رأينا- سر الترقي في درجات "الولاية"، فكذلك المحبة هي أسرع مضيا، وأنفذ ترقيا بالمؤمن إلى الحضرة الإلهية.

فإذا امتلكت "محبة الله" المؤمن، وملأت عليه أرجاء نفسه، مضى بقوة، وسار دون أن يلتفت إلى شبهة هنا، أوشك هناك، "فان الذين يتوجهون بقلوبهم إلى

معرفة الله عن طريق المحبة، لا يصغون إلى الاعتراضات ويجاوزون سريعاً العقبات والشبهات، وينقذون أنفسهم بسهولة ويحصنونها من الظنون والأوهام، حتى لـــو اجتمع عليهم آلاف شياطين الأرض، فلن يستطيعوا أن يزيلوا أمارة أو علامـــة واحدة تدل على كمال محبوبه الحقيقي وسموه". كما يؤكد "النورسي".

فالمحبة مصفاة تصفي النفس، وترهف المشاعر، وتجمع الفكر على المحبـــوب، وتمنعه من التشتت والتبعثر في شعاب الشكوك والظنون،

"ومن دون هذه المحبة يتلوى الإنسان تحت وساوس نفـــسه وشـــيطانه، وينهار أمام ما تنفثه الشـــياطين من اعتراضات وشـــبه. فلا يعـــصمه شيء سوى متانة إيمانه وقوته، وشدة انتباهه وحذره".

"إذن فالمحبة النابعة من معرفة الله هي جوهر جميـــع مراتـــب الولايـــة واكسيرها."

فلا قرب ولا وصال بدون شوق يحرك ويدفع، ومحبة تلملم وتجمع.

ولكن يخشى على "المحب" وهو يكرع من كؤوس المحبة أن ينبسط في مقامه، فيخلع العذار، وتدفعه حاله وأذواقه للإدلال بمحبته

"إنه يُخشى أن ينقلب المحب من التضرع والتذلل لله – اللذين همـــا ســـر العبودية– إلى الإدلال والطلب والدعاوى. فيطيش صوابه ويتحرك مختالاً بمحبته دون ضوابط أو موازين". كما يحذر "النورسي".

وهناك خطر آخر يتهدد "المحب" الذي غدا منبعا من منابع المحبة، وبحـــرا لا ساحل له من بحورها، فهو لا ينفك يفيض بمحبته ويغمر بها كل شيء من حوله، وربما سينسى في فورة هذا الحب العظيم الواسع حبه الأعظم والأسمى والأجـــل، وهو حبه لله جل وعلا.

ومعلوم أن كل ما "سوى الله" في كتاب الوجود هو حرف لا معنى لــه إلاّ إذا أعطاه الاسم الأعظم "الله" معناه، فمحبة هذه الحروف أي "ما سوى الله" ينبغــي أن يكون بسبب ما تومئ إليه وتذكرنا به من أسماء الله الحسنى، وإلاّ إذا أحببناها لذاها، وضعنا حبنا في غير موضعه، وسلكنا مع قلبنا في غير مسلكه الذي خلق له.

والآن استمع إلى النورسي وهو يبين ما يمكن للمحب أن يقع فيه من مهالك حيث يحذر من "أن تتحول المحبة لديه من "المعنى الحرفي" إلى "المعنى الاسمي" أثناء توجهه بالمحبة إلى ما سوى الله، فتنقلب عندئذٍ من دواء شاف إلى سم زعاف، إذ يحدث أحياناً أن المحب يتوجه إلى صــفات المحبوب –من دون الله– والى كماله الشخصي وجماله الذاتي، أي يكون الحب بمعناه الاسمي –لذاته– أي يستطيع أن يحبه أيضاً من دون تذكر الله ورسوله! مع أن الواجب عليه عند التوجه بالحب لما سوى الله أن يكون هــذا الحب في الله ولله، فيربط قلبه به من حيث كونه مرآة لتجلي أسمائه الحسنى.

إن مثل هــذا الحب بالمعنى الاسمي لا يكون وسيلة لحب الله، بل ستاراً مــن دونه. بينما الحب بالمعنى الحرفي أي بسبب من حب الله، فانه يكون وســيلة إلى زيادة حب الله، بل يصح القول انه تجل من تجلياته سبحانه.".

النقطة الثالثة: ثمرة العمل

ليس من حق الأجير في عمل ما، أن يطالب باستيفاء أجره قبل الفراغ مــن العمل الذي استؤجر له، ولو حدث وطالب بأجر على عمل لم يتم بعــد، عــد تصرفه هذا حماقة، إن لم نقل انه سوء أدب ينبغي التنــزه عنه.

وما دام في المؤمن اقل إثــارة من حياة، وما دام فيه قلب ينــبض، ونفــس يتلجلج في صــدره فهو في عبــادة، والعبــادة عمل لا ينتهي قبل أن ينتــهي

المؤمن نفسه، ويتوقف قلبه، ويخمد حسه، وتنطفئ روحه.

فتطلع المؤمن من وراء عمله الإيماني إلى استيفاء أجره من الله، والحصول على مكافأة منه، وهو بعد في هذه الدنيا التي يستطيع أن يسجل بها ما يشاء من صالح الأعمال بمجرد النية الحسنة حتى إذا كان يحتضر ويعالج سكرات الموت في سويعات حياته الأخيرة... إن تطلعه إلى هذا الأجر الإلهي، والى العطاء الرباني وفيه نفس يغرغر، أمر سابق لأوانه، ومجانب للسنة الإلهية التي جعلت الدنيا:

"إن الدنيا هي دار العمل ودار الحكمة، وليست داراً للمكافأة والجزاء. فجزاء الأعمال والبر الذي يحصل هنا يكون في الحياة البرزخية والدار الآخرة، فتؤتي هناك أكلها وثمراها".

فلا يمكن للزارع أن يزرع وان يحصد في آن واحد. ولما كانت الدنيا مزرعة الآخرة، فعلينا أن نزرع فيها من صالح الأعمال بقدر ما نستطيع، ونحصد ما زرعناه هناك في الحياة الآخرة، ولا نطلب ثواب ما زرعناه في حياتنا الدنيا، هكذا يعلمنا النورسي فيقول:

"فما دامت الحقيقة هكذا يجب عدم المطالبة بثمرات الأعمال الأخروية وجزائها في هذه الدنيا".

ولكن قد يشاء الله تعالى -تفضلا منه وتكرما- أن يفيض على بعض أوليائه بلطائف من ثمرات أعمالهم، ويهب لنفوسهم نفحات من رحمته، وينعش أرواحهم بنسيمات من بليل رضاه ومحبته، ويغشيهم بأنوار تجليات أسمائه الحسنى، ليبلوهم ويرى كيف يستقبلون نعمه، ويتناولون إحسانه...!

والنورسي يقف طويلا عند هذه النقطة، ويذكر أولئك الذين يتعرضون لمثل هذا الاختبار الصعب أن "ولو أعطيت لهم يجب أخذها وقبولها من يد الرب

سبحانه بفرح مشوب بالحزن، وسرور ممزوج بالأسى، وليس بفرح وسرور خالصين، ذلك لأنه ليس من الحكمة تناول ثمرات الأعمال -التي لن تنفد عند تناولها في الجنة- في مثل هذه الحياة الفانية، إذ يشبه ذلك العزوف عن مصباح خالد النور والإضاءة والتعلق بمصباح لا يتوهج نوره إلاّ دقيقة ثم ينطفئ!".

والأعمال التعبدية تنطوي بحد ذاتها على ما يسر المؤمن "المتعبد" ويشرح صدره، ويطمئن فؤاده، فلكل عبادة طعمها ومذاقها، وأثرها في النفس والفكر والوجدان، ومع ذلك فان ما تتركه العبادات في فؤاد المؤمن من عذوبة وحلاوة، وما تبث في أرجاء ذاته من حسن وجمال، وما تقطره من أنداء، وتزرعه من ربيع، ما هو إلاّ رمز وإشارة لما يمكن أن ينتظر المؤمن من أجر هو أكبر وأعظم وأجمل في الحياة الآخرة. وها هو النورسي يواصل حديثه فيقول:

"وبناء على هذا السر الدقيق -أي انتظار الأجر في الحياة الآخرة- فان الأولياء يستعذبون مشاق الأعمال ومصاعبها والمصائب والبلايا، فلا يشكون ولا يتذمرون.

بل لسانهم دائماً وأبداً يردد: الحمد لله على كل حال. وإذا وهب الله لهم كرامة أو كشفاً أو نوراً أو ذوقاً فانهم يتناولونه بأدب جم ويعدونه التفاتاً وتكرماً منه سبحانه إليهم، فيحاولون ستر الكرامة وإخفاءها ولا يظهرونها ولا يفاخرون بها، بل يسارعون إلى زيادة شكرهم وتعميق عبوديتهم، وكثيرون منهم يجأرون إلى الله أن يحجب هذه الأحوال عنهم ويحجبهم عنها ويتمنوا ذهابها واختفاءها خوفاً من أن يتعرض الإخلاص في عملهم للخلل.

"حقاً إن افضل نعمة إلهية يمكن أن ينالها شخص مقبول عند الله هي التي توهب له من دون أن يشعر بها". ونعم الله التي لا يخشى منها على "الولي" هي

تلك التي تأتيه وتتنـــزل عليه دون أن يحس بها، فضلا عن أن تستشرف نفـــسه لها، وبذلك يضمن "الولي" لنفسه عدم الوقوع في حبائل الاستدراج التي أهلكت الكثير من السالكين.

ويظل "الولي" بخير ’’لكي لا يتحول من حال التضرع والـــدعاء إلى حـــال الإدلال بعباداته وطلب الأجر عليها، ولئـــلا يتحول من موقع الشكر والحمد إلى موقع الدل والفخر‘‘. كما يقول "النورسي".

وأخيرا يهتف النورسي بالراغبين في سلوك طريق الولاية ناصحا ومحذرا:

’’فاستناداً إلى هذه الحقيقة فان الذين يرغبون في ســـلوك طريق الولاية والطريقة إن كانوا يرغبون في تناول بعض الثمرات الجانبية للولايـــة، أمثال اللذات المعنوية أو الكرامات، ويتوجهون إليها ويطلبونها ويلتذون بها.. فان هذا يعني رغبتهم في تناول تلك الثمرات في هذه الحياة الفانية، وهي -إذا حصلت لهم- ثمرات فانية على أي حـــال كان. وبذلك يفقدون الإخلاص في أعمالهم الـــذي به ينالون ثمرة الولاية. كما انهم يمهدون السبيل لفقدان الولاية نفسها‘‘.

الفصل السابع

الشريعة لباب كلها

اللباب والقشور

تزداد المسافة بعدا وسعة بين لباب الأشياء وقشورها، وبين ظاهرها وباطنها، كلما ازددنا إيغالا في عوالم الكثافات والكتل والأثقال.

وتقل هذه المسافة وتضيق كلما سرنا في الاتجاه المعاكس، وأوغلنا صعدا في عوالم الدقائق والرقائق واللطائف حتى نصل "اللطيفة" التي تكاد تنعدم عندها هذه المسافة وتزول، فلا قشور عندئذ ولا لباب، وإنما "كيان واحد" من أين نظرت إليه فهو اللب عاريا من كل قشر.

وهكذا كلما سمونا في عالم "الألطاف"، رقت الأشياء وشفت، حتى إذا ما وصلنا بحار اللطف الأعظم والأقدس والأجمل، فلا عرض ثمة ولا جوهر، وإنما "ذات واحدة" متفردة بالجمال والجلال، والعظمة والكبرياء، لا ند لها ولا شبيه... وتلك هي "الذات الإلهية" المنزهة عن ظنون الأذهان، وخطرات الأفكار والأحداس.

يقول النورسي:

”إن الشريعة هي نتيجة الخطاب الإلهي الصادر مباشرة -دون حاجز أو ستار- من الربوبية المطلقة المتفردة بالأحدية.

لذا فإن أعلى مراتب الطريقة وأسمى درجات الحقيقة لا يعدوان كونهما أجزاء من كلية الشريعة. أما نتائجهما وما يؤلان إليه فهي الأوامر الشرعية المحكمة. فهما دائماً وأبداً يظلان بحكم الخادم للشريعة ووسيلة إليها ومقدمة لها.

فالسالك في الطريقة يرتفع تدريجياً إلى أعلى المراتب التي ينال فيها ما في الشريعة نفسها من معنى الحقيقة وسر الطريقة. وعندئذ تكون الطريقة والحقيقة أجزاء الشريعة الكبرى.

لذا فليس صحيحاً ما يتصوره قسم من المتصوفة من أن الشريعة قشر ظاهري، وحقيقتها هي لبها ونتيجتها وغايتها“.

ولكن الصحيح أن "الشريعة" هي "الحقيقة المطلقة" التي ينبغي على الجميع أن يعرفوها ويخدموها ويسلكوا إليها السبل والطرق ليصلوا إلى مراميها ومقاصدها، ويتذوقوا جمال تعاليمها وأحكامها.. وهكذا يمضي النورسي مؤكدا هذا الأمر بقوله:

”إن أهل الطريقة، وأصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم، وجدوا أنفسهم منجذبين اكثر إلى الحقائق الشرعية، متبعين لها، مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها. حتى انهم يتخذون ابسط أنواع السنة النبوية الشريفة كأعظم مقصد وغاية، ويسعون إلى اتباعها وتقليدها“.

وللتفاوت الفطري بين عقول الناس، واختلاف قابلياتهم الذهنية، تختلف أيضاً فهومهم وإدراكاتهم لمقاصد بعض أحكام "الشريعة" وأهدافها وغاياتها، ”فما

يظهر منها وينكشف للعوام هو غير ما يظهر وينكشف للخواص.. انه من الخطأ توهم ما يظهر من الشريعة للعوام هو حقيقة الشريعة، وإطلاق اسم "الحقيقة" و"الطريقة" على مرتبة الشريعة المنكشفة للخواص".

وهذا خطأ يقع فيه غالبية الناس كما ينبه "النورسي".

ويمضي النورسي في زيادة إيضاحه فيقول:

"فالشريعة لها مراتب متوجهة إلى جميع طبقات البشر".

بحيث إن كل إنسان أميا كان أو متعلما، ساذج التفكير أو فيلسوفا، عادي الفكر أو عبقريا، يجد حاجته –على قدر عقله– فيما جاءت به الشريعة من آداب وأحكام.

وبناء على هذا السر:

"فإن أهل الطريقة، وأصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم، وجدوا أنفسهم منجذبين اكثر إلى الحقائق الشرعية، متبعين لها، مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها".

لأنهم مهما تميزوا وارتقوا في سلم "الخصوصية" فسيظلون ظامئين لنور "الشريعة" وجائعين لخبزها.

ولعظم الأنوار التي تسطع في سماء نفوسهم بنتيجة ارتباطهم الحميم بالشريعة – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة– نراهم يتعلقون بالسنن، وتتساوى عندهم في التعلق والتطبيق ابسطها وأعظمها، فنور "الشريعة" أنور وأسطع وأبهر من كل نور، "لأنه بمقدار سمو الوحي وعلوه على الإلهام، فالآداب الشرعية التي هي ثمرة الوحي هي أسمى وأعلى من آداب الطريقة التي هي ثمرة الإلهام، لذا فإن أهم أساس للطريقة هو اتباع السنة النبوية المطهرة" التي هي لباب الحق والخير والذوق والجمال.

الغايات والوسائل

تبعد "الغايات" وفي بعدها غياب، وفي الغياب خطر النسيان ثم الضياع...

وتقرب "الوسائل"، وفي قربها حضور، وفي حضورها الدائم معنا، وفي قربها من أفكارنا، ومعايشتنا اليومية لها، خطر وأي خطر.. إذ قد تتسلل هذه "الوسائل" خفية ومن دون أن نشعر إلى عقولنا ونفوسنا، وتندغم بها وتكاد تصبح جزء هاما من ذواتنا لدرجة أننا ننسى ويغيب عن بالنا -في غمرة هذا الاندماج الوجداني- "الغاية الأساس" التي امتطينا متون الوسائل من اجل الوصول إليها.

وبذلك تتحول "الوسيلة" التي هي طريقنا إلى "الغاية"، إلى "غاية" بحد ذاتها، بينما نكون "الغاية الأساس" قد احتجبت وغابت وأسدلت من أمامها ستائر "الوسائل" فلم تعد تحتل من أذهاننا وخيالنا إلاّ صورة باهتة، ومثالا شاحبا.

وهذا سر "الوثنيات" التي عانت منها البشرية في تاريخها الطويل، وما زالت تعاني منها اليوم، وقوف على حدود الوسائل من دون الغايات، وعكوف عليها إلى حد العبودية، وهبوط مخيف في اهتمامات الإنسان العالية، وترد فكري مريع في مهاوي الضيق والانحسار والمحدودية.

وإذا كانت "الطريقة" ومن ثمة "الحقيقة" هما وسيلتان للتقرب من "الحضرة الإلهية" فمما ينبغي الحذر منه -كما يقول النورسي-:

"ينبغي ألاّ تتحول الطريقة والحقيقة من كونهما وسيلتين إلى غايتين بحد ذاتهما (تستحوذان على قلب السالك وفكره ووجدانه). فإذا أصبحتا -الطريقة والحقيقة- مقصودتين بالذات، فان الأعمال الشرعية المحكمة، وآداب السنة السنية، تنحسر حتى تأخذ الدرجة الثانية من الاهتمام لدى السالك، وتصبح صورية شكلية بانشغال القلب بالتوجه إلى آداب الطريقة ورسومها. أي أن المرء -عندئذٍ- يفكر بحلقة الذكر اكثر من

تفكيره بالصلاة، وينجذب إلى أوراده اكثر من انجذابه إلى الفرائض، ويلزم نفسه بتجنب مخالفة آداب الطريقة اكثر من التزامه بتجنب الكبائر، والحال أن أداء فريضة واحدة التزاماً بالأوامر الشرعية لا يمكن أن توازيها أوراد الطريقة أو تحل محلها".

ويمضى (النورسي) مستطردا فيقول:

"فآداب الطريقة، وأوراد التصوف، وما يحصل للسالك منهما من أذواق ينبغي أن تكون مدخلاً لأذواق أحلى وأعلى وأسمى، يحصل عليها هذا السالك من أداء الفرائض والسنن. أي أن ما يأخذه المرء من التكية من أذواق، لا بد أن تكون استهلالاً لأذواق الصلاة التي يؤديها في الجامع، بقيامه بأركانها وأدائها على الوجه المطلوب، وإلا فالذي تشغله أذواقه في التكية عن صلاته في الجامع، فيؤديها بخفة وسرعة صورية وشكلية لا حرارة فيها ولا روح، إنما يبتعد عن الحقيقة" ابتعاد صلاته عن الأداء المشروع.

حكم اللطائف

كما أن للمعادن الخبيئة في باطن الأرض مجسَّات تجس التراب وتكشف عما تحته من نفيس المعادن، كذلك للنفس البشرية مجسات غاية في الرهافة والحساسية تحركها الأشواق، وتهزها المواجيد، للكشف عن أسرار ما يؤمن به الإنسان من غيبيات الدين. والتعرف على حقيقة ما يعتقده في الوجود والعدم، والموت والحياة والخلود والفناء.

وهذه المجسات هي "لطائف النفس الإنسانية" التي تنطلق من مكامنها في حومة الاشتياق إلى مظان الفيوضات الإلهية، ومنافذ الأنوار القدسية، ضمن ضوابط الشريعة وقواعدها، وربما خارج هذه الضوابط والقواعد أيضاً..

لذلك عندما سئل النورسي:

"هل يمكن أن توجد طريقة خارج نطاق السنة النبوية الشريفة وأحكام الشريعة؟".

كان جوابه: نعم، ولا !..

"نعم، لأن عدداً من الأولياء الكاملين قد اعدموا بسيف الشريعة.

حيث أعطوا رؤوسهم ثمنا لهذه اللحظة الكشفية العنفوانية المثيرة.

أولا، لأن الأولياء المحققين قد اتفقوا على القاعدة التي ذكرها سعدي الشيرازي[1] شعراً:

محالست سعدى براه صفا ظفر بردن جز در بى مصطفى

أي محال أن يصل أحد إلى الأنوار الحقيقية للحقيقة خارج الصراط الذي اختطه الرسول ﷺ، ومن دون اتباع لخطواته".

فاصطدام بشرية البشري -في أية لحظة- ببارقة من بوارق "الحق"، ولمعة من نوره، يشعل داخل النفس من الشموس ما يعشي العقول، ويفجر من الأضواء ما يربك البصائر، ويحدث من الهزات ما يقلب عالي الإنسان سافله، وظاهره باطنه، فينفلت -عندئذ- من عقال العقل، ويخرج عن ضوابط الفكر، فلا شيء يمسك عليه عقله، ويحد له بصيرته، ويقيه الانفلات والضياع، ويشده إلى عمود الوجدان، ويسنده إلى جدار الثبات والاطمئنان، مثلما يفعل صراط محمد ﷺ، وطريقه المستقيم.

(١) السعدي (١١٨٩-١٢٩١) "شيخ مصلح الدين": من شعراء الصوفية الكبار، ومن ارقهم تعبيرا، ولد في مدينة "شيراز"، قدم بغداد استكمالا لدراسته في علوم الدين في المدرسة النظامية، كان من مريدي الشيخ عبد القادر الكيلاني. قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار ونظم الشعر، وكتابه "كلستان" مشهور وله بستان وديوان.

فالرسول الكريم محمد ﷺ هو ممثل البشرية في أشـــواقها، وعندليبـــها الـــصداح بلوعات حنينها، وهو مع ذلك ميزان النفوس المضطربة، والعقول الجانحة، ومرتكـــز المنفلتين، وشاطئ الأمان لكل التائهين، والسد العظيم الذي تتكسر عليه عواصـــف العاصفين، وأمواج الهادرين، وهو عقل العالم إذا جن، ورجاؤه إذا قنط، وأمنـــه إذا خاف، وسكينته إذا تزلزل،

"ما دام الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين وقد خاطبه الله سبحانه باسم البشرية وممثلا عنها ، فلا بد ألاّ تسير البشرية خـــارج الصراط الـــذي بينـــه، فالانضواء تحت لوائه ضروري". كما يقول النورسي.

الفصل الثامن

مزالق السالكين

"ثمانية مزالق ومساقط قد ينــزلق إليها، ويسقط فيها بعض من سالكي الطرق الصوفية".

ونود أن نشير هنا إلى أن "التلويح الثامن" هو في حقيقته إجمال وتلخيص لما ورد في التلويحات السابقة مما يقع فيه بعض "المتصوفة" من انحرافات وشطحات، وقد أجملها النورسي هنا، ثم أعقبها بإجمال آخر "لمحاسن الطرق الصوفية الحقة"، ولما يمكن أن تقدمه من خدمات للإيمان في "التلويح التاسع" مباشرة، لكي يتسنى للقارئ أن يوازن عن كثب بين ما يصح من التصوف وبين ما لا يصح منه.

"١ . مسألة الولاية والنبوة

إن الورطة التي يسقط فيها سالكون من الطرق الصوفية -ممن لا يتبعون السنة النبوية على الوجه الصحيح- هي اعتقادهم بأرجحية الولاية على النبوة!! ولقد أثبتنا مدى سمو النبوة على الولاية وخفوت ضوء الأخيرة أمام نور النبوة الساطع في الكلمة الرابعة والعشرين والكلمة الحادية والثلاثين من كتاب "الكلمات"."

وينسى هؤلاء المنـــزلقون إلى هذا المنـــزلق المهلك، أو يتناسون بأن للشريعة -وقت ينـــزل بها الوحي- أنوار لو هبطـــت علـــى جبـــال الأرض لخـــشعت وتصدعت، و لم تقو جلاميدها وصخورها على الثبات والسكون، لما في هـــذه الأنوار من قوى الحق الثقيلة، ولما يسري فيها من صراحة الصدق والعدل، ولمـــا هي متسربلة به من عظمة الجلال، وهيبة الكبرياء، ولعذوبة ما يتقطر فيها مـــن جمال الحضرة الإلهية، ولقدسية ما هو مندرج فيها من طهر وقداســـة ونزاهـــة، وليس لهذا كله إلا رجال مصنوعون على عين الله من أولي العزم مـــن الأنبيـــاء والرسل، وليس لها مهبط إلاّ قلوب هي في رقتها ولطافتها وشفافيتها وأنوارها ما يتطامن الحديد عند أبوابها، ولو تخطى عتبة الباب ذاب وانصهر واحترق.

أما "الأولياء" فهم أطفال قصر في حجر "الأنبياء" ولو تعرض أحدهم للمحة من لمحات ما يتعرض له النبي من بوارق الحق لاحترق بها، ولذابَ عقله، وجـــن فؤاده، وهم يخوضون في ضحضاح من بحار بينها وبين بحار النبوة سبعة أبحـــر، ويستضيئون بأنوار هي شموع باهتة لو انسكبت فوقها قطرة من أنوار "النبـــوة" لكسفتها وأطفأتها.

فأين الأولياء من الأنبياء.. وأين الثرى من الثريا.. !

٢. الأولياء والصحابة

تعظم معرفة "التلميذ"، ويسمو شأنها، ويترسخ في ذهنه درسها، وتتعمق في وجدانه أصول ما يتعلمه، ويرقى فهمه لأعلى المسائل وأدقها، ويرهف ذكـــاؤه، ويسهل عليه استيعاب ما يلقيه "المعلم" من معارف وآداب وعلوم، عندما يكون "التلميذ" متواصلا بكل محبة واحترام في ذاته مع "معلمه" في دائرة مـــن "زمـــان ومكان" معينين من بين حقب التاريخ.

أما إذا ما نجمت بين "الأستاذ" و"تلميذه" فواصل زمانية أو مكانية لأي سبب كان، فأن هذه "الفواصل " ستكون -بلا شك- سببا من أسباب القصور في الفهم والتلقي والاستيعاب لدى "التلميذ" مهما توفرت له المصادر التي تربطه -غيابا- بأستاذه، حتى يغدو هذا دون المستوى الذي يمكن أن يرتقي إليه "تلميذ" يتلقى مباشرة عن أستاذه من غير أية حواجز.

فالصحابة الكرام -بصحبتهم للرسول ﷺ ومعاصرهم له- قد حازوا قصب السبق على الأجيال الذين جاءوا من بعدهم، فهم تلامذة محمد ﷺ الأدنون، الذين لازموه زمانا ومكانا، وصحبوه في سراء الحياة وضرائها، وأخذوا عنه، وتلقوا منه مباشرة، واستمعوا له شفاها، وعرفوه عن كثب معرفة خالصة صافية نقية، وخبروا أحواله جميعا، وشاهدوا سنته وطريقه فيما يعالج من شؤون الناس، في السلم والحرب، والسوق والمحراب، والبيت والمجتمع، ورأوا عدله إذا قضى، ورحمته إذا ساس الناس، وشجاعته إذا قادهم، وكرمه إذا أعطى، وأمانته إذا أؤتمن، ولمسوا من قريب إخلاصه في توحيده، وحبه في عبوديته، وإيثاره رضى الله على كل رضى، ومحبة الله على كل محبة، فإذا أصحابه يتزاحمون بالمناكب على الطريق التي افتتحها لهم، ويسارعون في السبيل التي سلكها أمامهم، ويسلكون سنته، فيقتربون منه ثم يقتربون، حتى يصيبهم من رشاش نوره ما أصابهم، ويخالطهم من بشاشة روحه ما خالطهم، ويمازجهم من صفاء ضميره، ونقاء وجدانه، أثارة من هذا الصفاء وذاك النقاء.

فلا أحد -ممن جاء بعدهم، ولم يشرف برؤية الرسول ﷺ ولم يقدر له أن يعيش في عصره السعيد أو يقبس من نوره عيانا وحضورا- قادرا على أن يطال القمة الإيمانية الرفيعة التي يقف عليها هؤلاء الصحابة الكرام، ولن ترقى بأحد إلى هذه القمة آلاف الكرامات التي يحرص بعض الصوفية على حشدها في معرض

المقارنة بين الأولياء والصحابة. فهذه الكرامات لا تعلو بهؤلاء الأولياء إلى مصاف الصحابة فضلا عن أن يرجحوا عليهم أو يفضلوهم.

فالكرامة ليست دليلا على أرجحية صاحبها على غيره، وصاحب الكرامة على خطر عظيم، وربما كانت كرامته استدراجا أو امتحانا، لذا "فالاستقامة خير من الكرامة" كما يصرح ذلك الكثير من أقطاب الصوفية المعتبرين.

وإذا كان لبعض من الأولياء كرامات معدودة على أصابع اليدين طيلة حياته، فان حياة الصحابة كلها -بأنفاسها ولحظاتها، وساعاتها وأيامها- كرامات متتابعة تتابع الزمن، ومترادفة ترادف الليل والنهار، وأي كرامة أكرمها الله لأحد من خلقه أعظم من إكرامه إياهم بتقديره في الأزل أن يكونوا أصحاب رسوله، وأنصاره في دينه ودعوته، وأي كرامة أعظم من أن يجعل -جل شأنه- انتصار دينه، وقيام شريعته على أيديهم وبجهادهم، وبما بذلوه من دمائهم وأرواحهم..!

فالصحابة هم رجال الإيمان حقا، وأبطال الإسلام صدقا، الحاملون لهموم أمة، والمثقلون بتبعات دين ورسالة، فلا تبطئنهم الكرامات إذا منحوها عن هدفهم، ولا تشدهم خوارق العادات إذا خرقت لهم، فهي للمبتدئين حاديهم الذي ينشطهم من عقال، وللسائرين رفيق طريق، وسلوة سفر، أما الصحابة الواصلون إلى القمم فلا التفات لهم إليها، ولا اهتمام لهم بها، لان أنظارهم مشدودة إلى الأعلى والأسمى دائما وأبداً.

فإذا عرفنا هذا، أدركنا خطورة ''تفضيل قسم من المفرطين، الأولياء على الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، بل رؤيتهم في مرتبة الأنبياء عليهم السلام.
وقد شرحنا في الكلمة الثانية عشرة والكلمة السابعة والعشرين "الاجتهاد" وفي ذيلها الخاص بالصحابة كيف أن للصحابة الكرام خواص متميزة بسبب الصحبة

النبوية ، بحيث لا يمكن للأولياء أن يبلغوا مرتبتهم أصلاً فضلاً عن أن يتفوقوا عليهم. ولا يمكنهم أن يبلغوا قطعاً مرتبة الأنبياء". كما يقول النورسي.

٣. أوراد الطريقة وأذكار السنة

تربى "الأوراد الصوفية الخالصة" في أتباعها من المريدين أرق الأذواق، وهز فيهم ألطف المشاعر، وتثير عندهم أرهف الأحاسيس.

ومن مجموع هذه الأذواق والمشاعر والأحاسيس، يتشكل في وجدان الصوفي "حس جمالي" سريع التأثر باللمحة الخاطفة، والصورة الشاعرية المهومة، فيما يلتقيه مما يحيط به من موجودات في عالم الفكر والحياة.

والصوفية يتناولون "العالم" ويتلقونه من خلال هذا "الحس الجمالي" الشفاف الذي يملكون، ويترشفون "كوثر الدين" بتوحيده وآدابه وشريعته بكأسهم الجمالية المذواق، فينتشون ويرتفعون سراعا، ويحلقون بأجنحة "الأذواق" منفلتين من عقالات العالم، إلى عالم الجمال الذي تقوم فيه "الأذواق" وحدها خالصة من أثقال الضرورات، حتى ولو كانت ضرورات "الحكمة" نفسها.

وهذا الانفلات غير المنضبط يمكن أن يسمح به "للصوفي" أو يقبل منه بين حين وآخر شريطة ألا يظل قائما في حاله هذه، راغبا في المكوث فيها، رافضا العودة إلى جذبات "السنة والشريعة" ومشدات ما تنطوي عليه "الحكمة الإلهية" من ضرورات لا تنتظم الحياة الإنسانية في هذه الدنيا إلا بها.

فالسنة النبوية الشريفة هي المرساة التي ينبغي أن ترسو عندها سفينة الصوفي -في خاتمة المطاف- مهما أوغل في إبحاره... وهي المنار الهادي من التيه والضياع في أعماق بحار "التوحيد".. وهي جبل المغناطيس الجاذب الجامع والمانع من تشتت الفكر وزوغان النظر.

فالسنة إذن ينبغي أن تكون "ميزان الأذواق" التي ترشد الصوفي إلى ما لا ينبغي له أن يلحق به... وفي غياب "السنة"وعدم حضورها يخشى على الصوفي من خطر التهويم في أجواء باهتة تختلط فيها الأشياء، وتنعدم الحدود، وتتوحد المتناقضات، وتنمحي الأوزان والألوان، فيغدو -في هذه الأجواء- كل شيء ككل شيء، والأسود كالأبيض، والخير كالشر، والحق كالباطل... وذاك هو الضياع المخيف... والضلال المهلك.

وها هو النورسي ينبه في "المزلق الثالث" من "التلويح الثامن" إلى هذا الخطر:

”وهي ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة لأوراد طريقتهم وآدابها على أذكار السنة النبوية الشريفة، فيسقطون بذلك إلى منزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، في الوقت الذي يظلون متشبثين بأوراد طريقتهم، أي انهم يسلكون سلوك غير المبالي بآداب السنة النبوية الشريفة فيهوون في الورطة، وكما أثبتنا في كلمات كثيرة، وكما أكد كبار محققي الطرق كالإمام الغزالي والإمام الرباني:

"إن اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولاً عند الله اعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة. إذ كما أن فرضاً واحداً يرجح ألفاً من السنن، فان سنة واحدة من السنن النبوية ترجح ألفاً من آداب التصوف"“.

٤ . الوحي والإلهام

حضور "الصوفي" الدائم بقلبه ووجدانه مع "الله تعالى" يفتح أمام نفسه آفاق الاستشراف الجريء على المخاطبات الإلهية، ويغري الصوفي بقبول تصور نفسه موضعا للكلام الإلهي، والخطاب الرباني، فيتخيل ما تحدثه به نفسه، وما يتخطر على قلبه من خواطر، وكأنها خطاب الهي مباشر، أو نوع خفي من أنواع

"الوحي"... وكثيرا ما يتصرف "الصوفي" -الذي لم يبلغ درجة العرفان المنضبط بالسنة النبوية- كما يتصرف "النبي" الذي يأتيه "الوحي" صريحا واضحا لا لبس فيه ولا غموض، فيأمر وينهى، ويقر وينكر، ويعطي ويمنع، والصواب عنده ما يراه صوابا، والخطأ ما يراه خطأ.

ومنشأ هذا الوهم نابع من انتشاء "الصوفي" بأذكاره، واستغراق كيانه كله في هذه الأذكار، فيتوهم -بسبب هذا الانتشاء- أحاديث النفس، وخواطر القلب والوجدان، وكأنها صوت الله، وكلامه وهتافه، لما في هذه الأذكار من جمال اللطف، وبهاء الرحمة، وسناء المحبة والود، فيختلط عليه الأمر، وتنعدم لديه المقاييس، فلا يكاد يميز ما بين الخواطر والإلهامات من جهة، وما بين الكلام الإلهي والوحي من جهة أخرى، رغم ما بينهما من فروق شاسعة عظيمة.

والإلهام -كما لا يخفى- غير الوحي.. وثمة بون شاسع كبير بينهما... فالإلهام -بأية حال من الأحوال- لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة "الوحي" أبدا.. كما ذكر في ختام التلويح الرابع.

وصاحب الإلهامات يتصرف وفق إلهاماته، على خوف ووجل وربما صاحبه توقف وتردد -إن كان ممن يزنون أعمالهم وخواطرهم بميزان السنة- وذلك لأن هذه الإلهامات هي دون الوحي من حيث القوة والسطوع والوضوح بمراحل شاسعة بعيدة، وهي -أيضاً- لا تبلغ درجة الوحي في الصحة والصواب، فلا يمكن المضي بها باطمئنان وثقة وثبات.

أما "الوحي" فلا دخل للنفس فيه، ولا استشراف للباطن إليه، وهو يأتي فجأة ومن أعلى دائما بقوة وإشراق ووضوح. وليس من شرطه أن يكون موافقا لما يتخطر على النفس من خواطر، وقد يأتي مخالفا لها، ويبلغ في نفس "النبي" من

اليقين والصدق والحق ما يجعله قادرا على تحدي العالم كله به، ومخاطبة البشرية والدنيا بأسرها دون تردد أو خوف أو وجل. لان إيمانه ويقينه واعتقاده بأحقية "الوحي" وصدقه لا يمكن أن يشوبه أدنى شك أو شبهة. ويعقد النورسي مقارنة بين الإلهام "وان كان صادقا" وبين الوحي، في رسالة "الآية الكبرى" فيقول:

"إن الإلهامات الصادقة مع أنها تتشابه -من جهة- مع الوحي، من حيث إنها نوع من المكالمة الربانية، إلاّ أن هناك فرقين:

أولهما: إن معظم الوحي الذي هو أسمى وأعلى من الإلهام بكثير إنما يتم بوساطة الملائكة، بينما اغلب الإلهام يتم دون وساطة".

ولإيضاح الفرق بين الإلهام والوحي وتقريبهما للأذهان يورد المثال الآتي:

"من المعلوم أن هناك شكلين من صور التخاطب وإصدار الأوامر للسلطان:

الأول: باسم الدولة وعظمتها وحاكميتها وسيادتها على الجميع. فيرسل أحد مبعوثيه إلى أحد ولاته، ويجتمع -أحياناً- معه، ومن ثم يبلّغ الأمر، وذلك إظهاراً لعظمة تلك الحاكمية وأهمية ذلك الأمر.

الثاني: باسمه الشخصي، وليس باسم السلطنة، ولا بعنوان السلطان، فيتكلم كلاماً خاصاً، بهاتفه الخاص، في أمر خاص، وفي معاملة جزئية، مع خادمه الخاص أو مع أحد رعيته من العوام.

وكذلك كلام سلطان الأزل سبحانه وتعالى. فله كلام بالوحي والإلهام الشامل -الذي يقوم بوظائف الوحي- يتكلم باسم رب العالمين، وبعنوان خالق الكون. وله أيضاً طراز آخر من الكلام، وبشكل خاص، ومن وراء حجب وأستار، مع كل فرد ومع كل ذي حياة، حسب قابلياتهم، وذلك لكونه ربهم وخالقهم.

الفرق الثاني:

إن الوحي صاف، ودون ظـــل، خاص للخواص. أما الإلهام ففيه ظل واختلاط ألوان. وهو عام وله أشكال متنوعة ومتفاوتة جداً؛ كإلهامات الملائكة، وإلهامات الإنسان، والهامات الحيوانات. وهي بأنواعها المختلفة وأشكالها المتباينة جداً، تبين مدى سعة وكثرة الكلمات الربانية التي تزيد على عدد قطرات البحار.. ففهم السائح من هذا وجهاً من تفسير الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي..﴾ (الكهف: ١٠٩)".[1]

ويأخذ النورسي -رحمه الله- في "المزلق الرابع" من "التلويح الثـــامن" علـــى أمثال هؤلاء الصوفية، عدم تفريقهم بين الإلهام والوحي فيدينهم قائلا:

"إن بعض المتطرفين من أهل التصوف يظنون خطأً أن "الإلهام" بمرتبة "الوحي"، كما يعتبرون الإلهام نوعاً من أنواع الوحي فيسقطون في هذا المزلق الخطير، وقد برهنّا ســـابقاً في "الكلمة الثانية عشرة" و"الكلمة الخامسة والعشرين" المتعلقة بإعجاز القرآن وفي رسائل أخرى؛ كيف أن الوحي سام وعال وساطع وضاء وكلي شـــامل بينما الإلهام بالنسبة إليه جزئي وخافت".

٥. آفة الإنسان المدمرة

كان الإنسان وما يزال سؤوما ملولا ضجرا، يدنفه المكرور، ويمرضه المشابه، مما يحس ويرى ويسمع ويعمل... وتشيع الحياة الرتيبة المتماثلة -شكلا ومحتوى- في كيانه الدوار والقرف.

---

(١) الشعاعات ص١٦٣-١٦٤

ومن عادة الإنسان أن يقبل على الجديد والطريف من كل شيء بلهفة واشتياق، فلا تكاد عجلة الزمن تطويه وتدور به حتى تفتر لهفته، ويبرد اشتياقه، ويحس بالسأم والضجر من هذا الجديد الذي غدا -مع الزمن- عتيقا مملا مضجرا.

فالسأم آفة الإنسان والمدمرة، والسوس الخفي الذي ينخر جذع الإنسان من داخله، ويفرغه من المعنى والمغزى، ويغشي روحه باللوعة والأسى، ويفعم قلبه بالهم والحزن، فيتحول ماء الحياة العذب في فمه إلى أجاج، وتنقلب حلاوة الدنيا إلى مرارة تملأ الحلق بالغصص، وتدفع بهذا الإنسان المسكين إلى الإحساس بعبثية الحياة، وعدم جدوى الوجود...

وما لم تتفجر ذات الإنسان بالمثير والغريب والعجيب، وما لم يهز كيانه -بين حين وآخر- الجديد الذي يدهش ويروع، فسيظل هذا الإنسان يتآكل داخله، وتنهدم جدران وجوده، حتى يغدو في خاتمة المطاف، قرين البؤس، ورفيق الشقاء.

ولا شيء يقوى على أحداث الزمن -كما يؤكد الواقع المشاهد- ويستعصي على غيره، وينفلت سالما من قبضة كفه العاصرة، مثل "العبادات" التي ينوي الإنسان التقرب بها إلى الله... فالعبادة لا يمكن أن تعتق أو تصدأ، أو تبعث السأم والضجر في نفس "المؤمن المتعبد" فهي تتجدد كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، لأنها متعلقة -من حيث الجوهر- بالله سبحانه وتعالى، والله تعالى "حضور دائم" و"قيومية" أبدية، يقوم معنى الإنسان بها، ويستمد أسباب وجوده منها.

والعبادة -أيضاً- طريق المؤمن إلى معرفة الله... ومعرفة الله هي منبع كل المعارف في هذا الوجود، وهي أيضاً أعلى المعارف وأسماها جميعا، وهذه المعرفة تزداد ويحصل على المزيد منها وراء كل عبادة يؤديها المؤمن، ولا يمكن للإنسان الإحاطة بهذه "المعرفة" بعمره كله على هذه الأرض، ولابد له من عمر آخر في "الحياة الآخرة" يستوفي فيه ما فاته منها في الحياة الدنيا.

فالمؤمن المتعبد لا يمكن أن يظل واقفا أو مراوحا في مكانه، فهو في ترق دائم، وسمو دائم، فهو اليوم غيره بالأمس، وغدا ليس هو ما عليه اليوم.

ورغم أن "الدنيا" هي دار حكمة وعمل، وليست دار ثواب وعقاب، إلا انه لأمر ما شاءت حكمة الله أن تدرج في العبادة -أيا كانت- نوعا من الأجر الآني، هو اللذة الروحية والقلبية والوجدانية التي تغشاه أثناء وخلال تأديته العبادات.

ولعل أعظم هذه اللذات المحركة للمزيد من العبادات: هي الكرامات والأنوار والأذواق التي يتكرم بها الله سبحانه وتعالى على البعض من عبادة أصحاب الطرق الصوفية وغيرهم.

والمزلق الذي قد ينحدر إليه هؤلاء الصوفية المكرمون كما يقول النورسي:

"إن بعض المتصوفين ممن لم يدركوا تماما سر الطريقة -في كونها وسيلة وليست غاية بحد ذاتها- قد ينجذبون ويتوجهون إلى ما يفاض عليهم من الكرامات والأذواق والأنوار، تلك التي توهب ولا تسأل إذ يمنحها الله سبحانه تقوية للضعفاء، وتشجيعاً للمتكاسلين، وتخفيفاً من المشقة والسأم -الذي يعتريهم من شدة الإجهاد في العبادة- فينجرون إلى تفضيل تلك الكرامات والأذواق والأنوار على فروض الدين والخدمة تحت لوائه..".

ويستطرد النورسي فيقول:

"وقد سبق أن أجملنا في النقطة الثالثة من التلويح السادس وفي كلمات أخرى، بأن هذه الدنيا هي دار خدمة وعمل وليس دار ثواب ومكافأة، فالذين يرغبون في قطف ثمار أعمالهم في هذه الحياة الفانية، إنما يستبدلون المكافأة الدنيوية الفانية بثمار الآخرة الأبدية الباقية، فضلاً عن أن هذا

يدل على بقايا تعلق بالدنيا ورغبة في الاستمتاع بها، ويكون هذا سبباً في خفوت شوقهم وتطلعهم إلى الحياة البرزخية، بل يريدون هذه الحياة، إذ يجدون فيها نوعاً من ثمار الآخرة".

٦. الأصول والظلال

ترسم الجبال العظيمة العملاقة ظلالا كبيرة وعريضة على الأرض التي أرساها الله عليها... وبديهي إن ظل الجبل ليس هو الجبل نفسه، مهما توهم الواهمون وتخيل المتخيلون.

وليس للمستظلين بهذه الظلال من حر الهجير أن يتوهموا -في غمرة نشاواهم- مرتقاهم للظل هو مرتقاهم للجبل، ففي هذا الوهم مخادعة للنفس، وإغراء لها بمطاولة الجبل، ومجاوزة الحد والقدر، وتخطي وسع النفس وإمكاناتها التي لا يستطيع أحد مجاوزتها وتخطيها مهما اتسعت دعاواه، وعم ضجيجه وعجيجه، والجبال البشرية العملاقة من أنبياء وأولياء وصالحين وأتقياء تترك أيضاً ظلالها العميقة على صفحات الفكر والروح والوجدان، وتنشر أفياءها فوق المحترقين بصحارى التيه، وتظلل العطاشى والظامئين الآتين من قفار الروح المجدبة البعيدة... وعندما يدخلون الظل، ويتفيأون برده وسلامه، ويغمرهم ندى نوره، وظل ضوئه، يبدأ الامتحان، ويبلى المؤمنون، فمنهم من يتفتح وعيه، ويتنور بصره وبصيرته، فيلزم مكانه، ويعرف قدره، ولا يتجاوز حده، فيرى أنه في الظل فعلا، وما زال فيه.. ومنهم من تدير رأسه عذوبة النعمة، ويسكره جمال المنظر، وتسلبه البهجة حسن التقدير، فيسهو وينسى ويسرح مع خياله، ويظن أنه يتوقل الجبل، ويصعد في شعابه، وأنه هو والجبل صنوان في الشموخ، إن لم يشتط به الوهم بعيدا فيتخيل انه هو الجبل، والجبل هو..

يشخص النورسي هذا المنـــزلق الذي يقع فيه بعض سالكي الطرق الصوفية من غير أهل الحقيقة وذلك ”عندما يلتبس عليهم الأمر فيتوهمون بـــان ظـــلال مقامات الولاية ونماذجها المصغرة كأنها هي المقام الحقيقي والكلي والأصلي..“.

ويعود بنا إلى ما كتبه -في مكان آخر- حول هذه النقطة فيقول:

”ولقد أثبتنا في الغصن الثاني من "الكلمة الرابعة والعشرين" وفي كلمات أخرى بما لاشك فيه؛ أن الشمس وان تعددت صورها بتعدد المرايا التي تنعكس عليها، فهذه الصور تملك ضياء الشمس وحرارتها ولكن ليس هـــو الضياء الأصلي نفسه، ولا هي الحرارة نفسها فهي باهتة الأنوار بالنسبة للشمس الحقيقية.

كذلك فإن لمقام النبوة ولمقام كبار الأولياء، شيئاً من الظلال التي يمكن لأهـــل الطرق أن يستظلوا بها، ولكنهم يظنون أثناء دخولهم فيها انهم اعظم درجة من كبـــار الأولياء، بـــل حتى من الأنبياء -والعياذ بالله- فيسقطون في مزلق.

ولإنقاذ أنفسهم من جميع هذه المزالق المذكورة سابقاً عليهم أن يضعوا أصول الإيمان وأسس الشرع نصب أعينهم ويتخذوها مرشداً دائماً لهم، وان يخالفوا أذواقهم ومشهوداتهم ويتهموها عند تعارضها مع تلك الأسس“.

٧. عبودية المحبة

يؤكد الاستقراء والملاحظة في أحوال عمالقة الإيمان الروحية، أن ثمة تناســـبا مطردا بين المحبة والعبودية، فكلما تألق وتعاظم توهج القلـــب بالمحبـــة، واشـــتد احتراق الروح بلهيب العشق، قابله في الجانب الآخر من نفس المحب إيغال أعمق

وأعظم في "العبودية"، وتجرد أكمل من شارات الأنا ودعــاواه، وإســقاط أتم لمتطلبات النفس واستشرافاتها، وتبرؤ اشد من حول الذات وقوتها.

ودليل الصدق في المحبة احتراق المحب في حبه لا يبتغي لبقاياه أجرا أو ثمنــا، وبرهان إخلاصه في هذا الحب أن يتذاوب في وجده كالشمعة المشتعلة تجــد في ضوء اشتعالها غاية أجرها..

فالعطاء -عند المحب الصادق- هو الأخذ، والافتقار للحبيب هــو الغــنى، والذلة على أعتاب داره هي العز، والتجرد من كل حول وقوة، أمــام عظمتــه وكبريائه هو القوة ما بعدها قوة، والعبودية الخالصة المخلصة في حــضرته هــي الحرية اصدق من أية حرية..

وقدوة المحبين الواجدين، والعاشقين الواهين، ونور طريقهم، وشمس هداهم، إنما هو محمد ﷺ، فهو المحب الذي لا يرقى إلى أشواق قلبه أحد، والعبد الذي لا يسمو إلى أدنى عبوديته أحد، وهو في محبته واقف على حــدود الأدب مــع الله سبحانه وتعالى، ما زاغ بصره وما طغى.. ولما غفر له ما تقدم من ذنبــه ومــا تأخر، يصف قدميه الشريفتين للصلاة حتى تتورما...

وعندما يسأل السائلون: يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!

يكون جوابه ﷺ : أفلا أكون عبدا شكورا..؟![1].

أما أولئك الصوفية -من أصحاب الطرق- الذين يفقدون سنة الرســول ﷺ في أذواقهم، ربما سينصرفون -كما يقول النورسي-:

"إلى الفخر والادعــاء وإشــاعة الشــطحات وطلب توجه النــاس ونيل

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: "كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى تتورم قدماه، فيقال له. فيقول: افلا اكون عبدا شكورا ؟". صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب قيام النبي الليل حتى تتورم قدماه، رقم الحديث: ١٠٦٢؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث: ٥٠٤٤.

المرجعيات الدينية، ويفضلون هذه العجالات على الشكر والتضرع والحمد والاستغناء عن الناس، بينما عبودية محمد ﷺ هي أسمى مرتبة في العبودية، تلك العبودية التي نستطيع وصفها بالمحبوبية، أو عبودية المحبة.

فأساس العبودية وسرها هو التضرع والحمد والدعاء والخشوع والعجز والفقر والاستغناء عن الناس، وبهذا فقط يمكن الوصول إلى كمال تلك الحقيقة، حقيقة العبودية.

نعم إن عدداً من الأولياء الكبار اضطروا -دون اختيار منهم لغلبة الحال وبشكل موقت فقط- إلى الخروج إلى ساحة الفخر والطلب والشطحات، لذا فلا يجوز اتباعهم اختياراً في حالهم هذه، فهم مهتدون، ولكنهم هنا وفي هذه النقطة بالذات ليسوا قدوة في الهداية، لذا لا يمكن السير وراءهم والاقتداء بهم".

٨. المتعجلون

تتدلى على جانبي "الطريق إلى الله" ثمار شهية مغرية، تقع من السالكين من أهل الطرق في متناول أيديهم، وتغريهم بالوقوف عندها والاستمتاع بقطافها.

فأما المتعبون اللاهثون المتعجلون، فما تكاد تلوح لهم هذه الثمار حتى يقفوا عندها، ويتسلوا بقطافها والاستمتاع بها، وربما نسوا - في نشوة ابتهاجهم - القصد والهدف والغاية التي من أجلها ساروا في هذه الطريق.

وأما السالكون الصادقون الصابرون، فيغذون السير، ويمضون في الطريق لا يلوون ولا يقفون عند شيء، أو ينشغلون بشيء عن القصد والهدف والغاية، لأنهم يدركون أن الانشغال بغيره عنه سبحانه وتعالى إثم ينبغي ألاّ يقارفه المريد المخلص، والسالك المجد.

والنورسي يشير إلى هؤلاء المتعجلين والأنانيين من أهل الطرق من "الـــذين يرغبون في تناول ثمرات الولاية في الدنيا بدلاً من قطفها في الآخرة. وعندما يدل سلوكهم على هذه الرغبة، وتتكشف نيتهم من خلال هذا السلوك يكونون فعلاً قد سقطوا في هذه الورطة. علماً أن آيـــات كثيرة في القرآن الكريم من أمثـــال ﴿وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) تدل بوضوح مـــا أثبتنـــاه سابقاً في عدة "كلمات" من أن ثمرة واحدة من ثمرات عالم البقاء ترجح ألـــف بستان في هذه الحياة الفانية، لذا فالأفضل عدم تناول تلك الثمرات المباركة هنا، وإن أعطيت دون توجه ورغبة فيها، فيجب إبداء الحمد والشكر في قبولها – لا على أنها مكافأة– بل على أنها إحسان وفضل من الله وهبت للتشويق.".

الفصل التاسع

ثمار الطرق الحقة

"سنسرد هنا تسع ثمرات وفوائد من الثمار والفوائد العديدة للطريقة".

١. انكشاف الحقائق الإيمانية

تقوى "الحقيقة العلمية" وتتأكد،وتبلغ مرتبة الرسوخ واليقين، وتجهز على الشكوك والظنون والأوهام التي يمكن أن تخالط العقول حولها، عندما توضع موضع الاختبار والتجريب. وتبلغ أسمى درجات اليقين عند التطبيق والتنفيذ، حيث تقدم شاهدا عمليا وواقعا ملموسا على صدقها وأحقيتها.

ومعلوم بداهة انه ليس من شرط إيمان "الكل" بالحقيقة العلمية إسهامهم جميعا في خوض التجارب التي تجري عليها قبل التأكد من أحقيتها، إذ إن انصراف "البعض" من هذا "الكل" وهم "العلماء" إلى هذا العمل يسقط بالضرورة لزومه عن الآخرين، فأيمان "الكل" تابع لإيمان هذا البعض ولا غبار عليه مطلقا.

وكذلك "الحقائق الإيمانية" التي تتكشف وتتفتح وتظهر آثارها واضحة جلية -في قلب المريد وروحه ووجدانه- أثناء سلوك السالكين من أهل الطرق الصوفية

الحقة في طرقهم، وقطعهم مراحلها مرحلة بعد أخرى، ومقاما بعد آخر، حتى تصل عندهم في الوضوح والرسوخ والمصداقية حد "عين اليقين".

فالصوفية الذين ينهلون من روح السنة الشريفة ورحيقها هم "علماء الإيمان"، وطرقهم هي حقولهم ومختبراتهم التي يجربون فيها "حقائق الإيمان" حتى إذا انكشفت هذه الحقائق لديهم، وكادوا يلمسون آثارها وعملها في نفوسهم ونفوس الآخرين لمس اليد، ويشاهدون تجليها في القلوب كما تتجلى الشمس في رابعة النهار، فعندئذ يخرجون على الناس بحصيلة تجاربهم، وينشرون على الملأ نتائج معاناتهم.

فكما أن "علماء" العلوم هم حجة على حقائق هذه العلوم، فكذلك هؤلاء الصوفية -ومن قبلهم الأنبياء والرسل والصديقون- هم حجة على أحقية الحقائق الإيمانية وصدق ما جاءت به الأديان والشرائع.

يشير النورسي بإيجاز إلى هذه الفائدة وكأنه يجمل ما سبق أن قرره في التلويحات السابقة عن فوائد الطرق الصوفية فيقول:

> ”هي ظهور الحقائق الإيمانية وانكشافها ووضوحها إلى درجة عين اليقين بوساطة الطريقة الصحيحة المستقيمة. هذه الحقائق التي هي منابع خزائن أبدية وسعادة دائمة وكنوزها ومفاتيحها“.

٢. القلب الإنساني والخلود

يرتبط القلب البشري بالخلود برباط غيبي، نلمس آثاره، ونشاهد آياته. فهو في توجه دائم، وتطلع مستمر إليه، حتى لكأن هذا القلب خلق أساسا من أجل الخلود الذي لا يتراءى إلاّ فيه، ولا ينعكس إلاّ عليه، ولا يحسن فهمه والتعرف عليه إلاّ هو.

والقلب قد يجانبه الحظ، ولا يحسن الإتيان بجديد عندما يتناول من شؤون

الدنيا مالا نصيب له من البقاء والخلود، ولكنه يبدع ويتفوق فيما يعرض له من أعمال يمكن أن ترتبط برباط ما بعالم الخلود، فيتهيأ له أن يضع فيها سره، ويخفي في ثناياه شوقه، وينقش عليها آياته.

فالأعمال الإنسانية التي وضع الخلود عليها بصماته، فبقيت -الآلاف من السنين- حية ماثلة في الأذهان، وشاخصة في الأعيان، إنما سر خلودها ومطاولتها للزمن يرجع بالأساس إلى ارتباطها بقلوب إنسانية مخلصة استشرفت الخلود في العمل الذي أتت به.

وكثيرا ما يهمل الإنسان -للأسف الشديد- شؤون قلبه، ويتصامم عن نداءات أشواقه، ويعطله عن عمله الأساس ووظيفته الأولى والأهم، ويسدل بينه وبين استشرافا ته للخلود ستائر صفيقة مظلمة من ماديات الحياة، وشؤونها الأرضية الهابطة، فيصيبه -بسبب هذا- العي، ويأكله الصدأ، ويغشى بصيرته العمى، فتتعطل عندئذ -في الإنسان- آلة رصده للخلود، ومجسات أحاسيسه لعالم الغيوب، فيصاب -نتيجة هذا التعطل- بتصلب مادي مخيف، وتجمد روحي كثيف، لا يقوى على الشفاء منه، والانفلات عنه إلاّ بتعريض نفسه لهزة روحية هائلة، تبعث حرارة الحركة في القلب الجامد، والروح الهامد.

ولا يوفر مثل هذه الهزة الروحية للإنسان شيء مثل الطرق الصوفية الحقة

"هي تحقيق الوجود الحقيقي للإنسان بانسياق لطائفه جميعاً إلى ما خُلقت لأجله. وذلك بأن تكون الطريقة واسطة لتحريك قلب الإنسان الذي يعتبر مركزاً لجسمه ولولباً لحركته وتوجيهه إلى الله. فيندفع بهذا كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان".

٣. مع القوافل الإيمانية

تشكل "الطرق الصوفية" -على اختلاف مناهجها المترشحة من السنة الشريفة- مجتمعات إيمانية صغيرة تسعى -ضمن تجاربها الروحية- لاختبار الحقائق الإيمانية، والكشف عنها، ومشاهدتها ذوقا وعيانا، ثم الحفاظ عليها، وتسليمها -صافية نقية- للأفراد والجماعات عبر الأجيال الآتية من بعدها.

ورغم أن المنهج الصوفي يقوم بالأساس على "الذاتية" و "الفردية" ولا يؤتي ثماره إلاّ منهما ومن خلالهما، إلاّ أن "الصوفي" يجد -مع ذلك- في مريدي الطريقة من صحبه أنوارا تضيء له منعطفات الطريق. ويدا حانية تأخذ بيده اجتياز المراحل والأحوال والمقامات، حتى يندرج هو الآخر -حبة متلألئة جديدة- في السلك النوراني الذي تندرج به الطريقة نفسها، فيسهل عليه المرور والعبور.

فهذه الطرق الصوفية درر متألقة في سلسلة نورانية ذات طرفين، طرفها الأول متصل بالنور المحمدي الذي ينطوي فيه الزمن، وطرفها الآخر يصب في حوض "الطريقة" لينهل منه المريدون والسالكون.

ولا جدال في أن "الطريقة" تجثو خاشعة على شاطئ بحر نوراني عظيم يرفد جداولها وأنهارها بالنور، ويترع سواقيها بفيض من أسناء الروح المحمدي العظيم.

وهكذا تمضي قوافل الإيمان الواحدة تلو الأخرى، على هدي نور واحد يشعل المصابيح كلها، ويعطيها من نوره على قدر ما تطيق، وكل مصباح -في سيره- يقبس من ضوء مصباح آخر ويعطيه من ضوئه، والقوافل تترى، والأجيال تمر، والسلسلة النورانية الواحدة تنتظم الماضي والحاضر والمستقبل.

فالفائدة الثالثة من فوائد الطريقة - كما يقول النورسي:

"التخلص من وحشة الانفراد والوحدة في السير والسلوك، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا والبرزخ بالالتحاق بإحدى سلاسل الطريقة عند سيرها وتوجهها وسفرها نحو الحياة البرزخية ونحو الحياة الأخروية، وعقد أواصر الصداقة والمحبة بتلك القافلة النورانية في طريق أبد الآباد، فتندفع الأوهام والشبه عن النفس باستناد المريد إلى إجماعهم واتفاقهم باعتبار كل أستاذ مرشد حجة قوية وسنداً لا يضعف في دفع الأضاليل والأوهام التي ترد إلى الذهن".

٤. البذرة والشجرة

ترنو "بذرة الإيمان" في الإنسان شوقا إلى الضياء الذي يمدها بالدفء والحرارة، تماما كما تطل بذور الشجر من تحت ثرى الأرض اشتياقا إلى ضياء الشمس.

ويظل الإنسان منبوذا من الكون، ومهجورا من الكائنات، تفعمه الغربة بالمرارة، وتغمره الوحشة بالأسى ما لم يتعهد بذرة الإيمان في قلبه بالسقاء والنماء، ويسكب فوقها النور والضياء، لتنمو وتكبر تدريجيا وتتحول إلى شجرة كونية عظيمة تظلله بأغصانها الندية من هجير الوحشة، وسموم الغربة، ولتفتح أفنانها النورانية بينه وبين الكون طريق الصحبة والمودة والإخاء، وتعقد بينهما وشائج القربى وأواصر الجوار الحميم.

وبذرة الإيمان هذه تجد في أديم "الطريقة" المنورة بالسنة الشريفة تربة خصبة تمدها بالغذاء الصالح، وتلمس في سمائها من الأنوار والأضواء ما يلهب حماسها ويدفعها للنمو والشموخ.

وكلما ارتفعت شجرة الإيمان في الإنسان وشمخت وتفرعت أغصانها والتفَّتْ، زاد انس الإنسان بالكون، وزالت بينهما الجفوة، وسعى أحدهما إلى

الآخر بالود والمحبة، فيغدو هذا الكون الوعر الصعب، هينا سهلا موطأ الأكناف، ومرقاة سلسلة من مراقي الإنسان إلى الله، ويصبح الإنسان لسان الكون في صلاته وتسبيحه وحنينه وشوقه إلى الله، ويصبح الكون محراب الإنسان الكبير، وباحة تهجده وعبادته. فتتوارى الغربة، وتنزاح الوحشة، وتحل مكانهما، معرفة أنوس، وود لا يحول، ويختفي ما كان بين الإنسان والكون من صراع عدوين، وجدال متخاصمين، ويحل محلهما تعاون صديقين مخلصين، وتحاور محبين شفيقين. وهذا المعنى يؤكده النورسي حيث يقول في الفائدة الرابعة للطريقة ما يأتي:

"وهي خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة التي تكتنفه في حياته الدنيا، والانسلال من الغربة الأليمة التي يحسها إزاء الكون، وذلك بما تقوم به الطريقة الصائبة الصافية من تفجير ينابيع محبة الله ومعرفته في الإيمان. وقد سبق أن أثبتنا في كلمات عدة بأن سعادة الدارين، واللذة التي لا يشوبها ألم، والأنس الذي لا تخالطه وحشة، والسعادة الحقيقية لا توجد إلا في حقائق الإيمان والإسلام التي تسعى الطريقة للوصول إليها كما أننا بينا في "الكلمة الثانية" بأن الإيمان يحمل بذرة شجرة طوبى في الجنة.

نعم فبالتربية الموجودة في الطريقة تنمو تلك البذرة وتكبر".

٥. صحوة القلب

قد ينتاب "قلب" المؤمن –بين حين وآخر– غفوة تقطعه عن الله، وقد يعتريه ذهول يحجزه عن الذكر، ويغشاه –من أبخرة العيش– سحاب يحجبه عن تلقي النور الذي به يحيا، وبه يتنور.

وتشكل هذه الغفوات إذا ما كثرت معاودها على القلب خطرا يمكن أن يطيح بالقلب من مقام القرب، وينحدر به نحو مهاوي الغفلة والنسيان.

ويحسن -إذن- أن يقيم القلب تحت رقابة دائمة تنبهه من غفوته كلما غفا، وهزه كلما أطبق الكرى جفنيه، وأحسن من يقوم بهذه المهمة، وأفضل من يؤديها على الوجه المطلوب، إنما هي "الطريقة" المستمدة من روح السنة النبوية، حيث لها من منهجها التربوي ما يقوم هذا المقام ويؤدي هذه الوظيفة.

فوظيفة الطريقة الأساس، وفائدتها المهمة، هي المحافظة على قلب المريد صاحيا ذاكرا، لا يفتر ولا يسأم، والإبقاء عليه مستعدا لاستقبال ما يرد عليه من أسرار ولطائف وأنوار، وبذلك يذوق لذة العبادة، ويلمس حلاوة الطاعات، فينشط ويجد ويمضي قدما في طريقه إلى الله.

ويشير النورسي إلى هذا المعنى في الفائدة الخامسة من فوائد الطريقة فيقول:

"الشعور بالحقائق اللطيفة في التكاليف الشرعية وتقديرها بوساطة القلب المنتبه بدوام ذكر الله، كما يعينه على ذلك المنهج التربوي للطريقة. وبذلك تكون الطاعة والعبادة مثار اشتياق وحب، لا مثار تعب وتكليف".

٦. التوكل والرضى والتسليم

نحن "نريد"، ونحن نختار ما نريد، و"الإرادة" فينا دليل العلم والفكر والحياة... ومن حقنا أن نفرغ وسعنا ونبذل أقصى جهدنا من أجل إنفاذ إرادتنا بشرطين اثنين:

الأول: ألاّ تصطدم "إرادتنا" مع سنة كونية، أو سنة نبوية، لان النواميس الكونية -والسنة النبوية واحدة منها- لا تسمح بإنفاذ "الإرادات" التي تتعارض معها، ولا توافق روحها العام في القصد والغاية والحكمة.

الثاني: ألاّ نعتمد على حولنا وقوتنا فحسب في إنفاذ "إرادتنا". بل ينبغي

الاستعانة بحول الله وقوته، لأننا نظل ضعفاء عاجزين عن تحقيق ما نريد، ما لم يشد عزمنا تأييد من الله، وقوة من لدنه.

وهذا هو مقام "التوكل" الذي تسعى "الطريقة" للأخذ بأيدي مريديها للوصول إليه.

ومعلوم أن للوجود -والكون جزء منه- إرادة سابقة ونافذة، ولها الهيمنة المطلقة، والنفاذ الأكيد، ولكونها أزلية، وإرادتنا محدثة. فالسبق والغلبة لها دائما وأبدا. وهذه الإرادة السابقة والنافذة هي إرادة الله تعالى.

أما إذا قدر لإرادتنا أن تقع ضمن الدائرة العظمى للإرادة الأزلية، وان توافقها في القصد والغاية والحكمة، تم إنفاذها، وتحقق وجودها، وغدت جزءا من إرادة الله ومشيئته ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الإنسان: ٣٠). أما إذا أردنا شيئا، وأراد الله غير ما نريد، فالهيمنة لإرادة الله، والغلبة لها ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ (يوسف: ٢١) ومن الأدب وصدق العبودية أن نحترم إرادة الله، ونقف عند حدودها راضين حامدين شاكرين.

وهذا هو مقام "الرضى" الذي تطبع "الطريقة" أصحابها بطابعه.

وإذا ما ارتقى "المريد" وجاوز الأحوال والمقامات، ووصل المقام الذي تفنى فيه الإرادات، وتتلاشى عنده الرغبات فيريد -عندئذ- ألاّ يريد، أي : انه يريد ما يريده مولاه فيه وله، ويجعل إرادته تبعا لإرادة مولاه لا تزيد عليها ولا تنقص، وتدبيره ألاّ يدبر إزاء تدبير مولاه، وحوله وقوته أن يتجرد ويتعرى من كل حول وقوة، ويستسلم بكليته -لإرادة مولاه- استسلام الميت بيد غاسله -كما يعبر الصوفية-... وبهذا يكون قد وصل مقام "التسليم" الذي تهيئ الطريقة بمناهجها إتباعها له.

والآن فلنستمع إلى النورسي وهو يشير إلى هذه المقامات والدرجات والرتب في الفائدة السادسة من فوائد الطريقة بإيجاز واقتضاب فيقول:

"نيل مقام التوكل، ودرجة الرضى، ومرتبة التسليم. هذه المقامات هي السبيل إلى تذوق السعادة الحقيقية والتسلية الخالصة واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة".

٧. أمراض النفس وعلاجها

تتوالد الآفات التي تفسد ثمار "الأعمال التعبدية" في مستنقعين من مستنقعات النفس الإنسانية:

الأول: رؤية "النفس" في العمل، وينجم عنها الغرور، والغرور يلتهم جبال الحسنات -فضلا عن قيعانها وكثبانها- كما تلتهم النار الحطب.

ومعصية تورث خوفا وانكسارا وذلة، خير من طاعة تورث كبرا وغرورا.

الثاني: رؤية "الآخرين" أثناء العمل ومن خلاله، وتنجم عنها المراآة، والمراآة تورث "الشرك الخفي"، وكل عمل مع الشرك مردود على صاحبه، غير مقبول منه، كما هو ثابت من الكتاب والسنة.

وهذه الآفات القاتلة للأعمال، تسري في النفس مسرى الدم، وهي تكاد -لشدة خفائها- ألاّ تبين ولا تظهر حتى للمبتلى بها، كبعض الأمراض العضوية الخطيرة، لا تظهر أعراضها إلاّ بعد استفحال أمرها وفوات أوان معالجتها.

وكما يصعب على الإنسان المريض بمرض عضوي معالجة مرضه بنفسه، ولا بد من استشارة طبيب حاذق يصف له العلاج الناجح. فكذلك أمراض النفس، قلما يستطيع الإنسان المبتلى بها أن يعالجها بنفسه، فهو في حاجة لان يعرض نفسه على طبيب بصير بخفايا النفس وبأمراضها.

وأطباء النفس هم شيوخ الطرق الصوفية المقتفية آثار النبوة، والطريقة نفسها

هي طاولة تشريح للنفس البشرية، للوقوف على أمراضها وآفاقها. ومن ثمة معالجة كل داء بالعقار الذي يناسبه ويصلح له.

والطريقة تأخذ بيد المريض ، وتبدأ معه عملية غسل النفس من الشوائب والأكدار، وتنقيتها من السموم والآفات، فإذا ما تنظفت النفس وصفت، وخلصت من بوائقها، زف إليها "الإخلاص" مشرقا وضاء، ومضى مسرعا إلى القلب فتربع عرشه، وسرى في الوجدان فملأ جوانحه، حتى إذا استقر هذا الإخلاص في النفس، وملكها وأمسك بزمامها، ارتفع "العمل" إلى الله تعالى خالصا مبرأ من رؤية "ألانا" أو من رؤية "هم" فيقبل.

ويشير النورسي في الفائدة السابعة من التلويح التاسع إلى أهمية "الطريقة" في صياغة أَتباعها صياغة تقوم على الإخلاص حيث يقول :

"وهي نجاة الإنسان من الشرك الخفي والرياء والتصنع وأمثالها من الرذائل وذلك بالإخلاص الذي هو أهم شرط لدى سالك الطريقة واهم نتيجة لها. وكذا التخلص من أخطار النفس الأمّارة بالسوء ومن أدران الأنانية بتزكية النفس التي هي السلوك العملي في الطريقة".

٨. زهرات الآخرة

ليس "المؤمن" زماني الكينونة والوجود،ولا دهري المآل والمصير، فارتباطه بالزمن لا ارتباط حياة ومصير.

فانفلات "المؤمن" من قبضة "الزمن" الدنيوي، ووقوعه خارج هذا الزمن بالموت، لا يلغي وجوده، بل يؤكده، كما يتأكد وجود البذرة الآتي عند دسها بالتراب، وهو لا ينهي حياته، بل يجددها كما تتجدد حياة النواة عند طمرها في الأرض.

و"المؤمن" أيضاً ليس مكاني الفكر والروح والشعور، وهو وان كان أرضي المنشأ لأنه من طينها خلق، إلاّ أنه أخروي المرجع والمصير، ففكره وروحه ومشاعره سباقة في رفيفها إلى عوالم المستقبل الآتية، وهو يشتاق إليهما كما تشتاق إليه، ويناغيها وتناغيه، ويستمع لأصداء همساتها من عالم الغيب في خفايا أعماله، وأسرار نياته، فتتحول أعماله -بهذا التصور- إلى عبادات وقربات مهما كان عمق ارتباطها بالدنيا، لأنه يأخذها من يد الله، ويباشرها باسم الله، وينجزها لله، فتتفتح -عندئذ- هذه الأعمال عن زهرات أخروية مضمخة بأنداء الجمال، ومخضلة بسحائب الرحمة، فيتنسم عبيرها، ويعطر قلبه بشذاها، ويسبح وجدانه بألوانها وأضوائها، وهو بعد في هذه الدنيا لم ينتقل منها.

فالطرق التربوية الروحية المستهدية بأنوار السنة الشريفة تغرس في نفوس المنضوين لها هذه المعاني والأفكار، وتربيهم عليها، وتنشؤهم لها، فلا تعد "الدنيا" بنظر المريد المخلص عن كونها مرحلة من مراحل الطريق، ومحطة من محطاتها إلى عالم الأبد الجميل. فهو يُرَى مضطربا فيما يضطرب له الناس من شؤون الدنيا، إلا أن قلبه وفكره وروحه ترف في أجواء الأبد، وتحلق في آفاق الخلود، وهو يسعى بين الناس على رجلين، أحدهما تسير به فيما يسير إليه الناس، وتوشك الأخرى أن تتخطى به عتبة الآخرة من شدة شوقه إليها، ورنوه إلى عالمها، وبذلك يتحول كيانه الإنساني إلى روح لطيف دائم السجود تحت عرش الرحمن، ويغدو كله -بجسده وروحه- محض عبادة لا تتوقف.

ويلفت النورسي انتباهنا إلى ما يمكن أن تقدمه الطريقة الصائبة من خدمة للمؤمن في هذا المجال، فيقول في الفائدة من هذا التلويح :

"هي جعل الإنسان عاداته اليومية بحكم العبادات وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية، والإحسان في استغلال رأس مال عمره من الحياة

بدقائقها وجعلها بذوراً تتفتح عن زهرات الحياة الأخروية وسنابلها.

وذلك بدوام الذكر القلبي، والتأمل العقلي، مع الحضور القلبي الدائم والاطمئنان، ودوام شحذ الإرادة، والنية الصافية، والعزيمة الصادقة التي تلقنها الطريقة".

٩. الإنسان الكامل

تقرر "العلوم" أن الارتقاء، والسعي لطلب الكمال، قانون عام ينتظم جميع الكائنات الحية منها وغير الحية، دقيقها وصغيرها، كبيرها وعظيمها.

فالمخلوق الحي يهدف من خلال حياته للوصول إلى أرقى تحققاته الذاتية ضمن الأداء الوظيفي الذي شاءت حكمة الله ان تخلقه من أجله.

والإنسان -لكونه سيد المخلوقات- فهو أشد رغبة وأعظم توقا من جميع المخلوقات إلى الارتقاء والتفوق، والى بلوغ مرتبة الكمال الإنساني الذي يعكس عالم المثال الجميل السامي صورته على صفحة نفسه.

وما لم يكتشف "الإنسان" سبب وجوده وخلقه، ويقع على معناه ومغزاه ضمن الوجود الكبير، فسيظل عاجزا عن حل الرموز والإشارات التي تتلقاها النفس من عالم المثال، فيتيه ويضل ويبقى طوال عمره في دوامة رهيبة من التصعيد والهبوط، يرتقي هنا درجة، ويهبط هناك أخرى، ويعلو هنا ويسفل هناك، فلا يستكمل ارتفاعه ولا يستوفي تصعيده، ولا يحقق إنسانيته، وهذا هو سبب الشقاء النفسي والتعاسة الذاتية التي يعاني منها إنسان هذا العصر.

أما "المؤمن" فهو يعلم سبب خلقه، وحكمة وجوده، ويدرك أن أعظم ما يصبو إليه من كمال، وأجل ما يشتاق إليه من الارتقاء، لا يتم إلا من خلال

تحققه بالمهمة الأساس التي خلق من أجلها، وحددها الله سبحانه وتعالى له بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾ (الذاريات: ٥٦).

فإخلاص العبودية لله، وإدامة طلب القرب منه، والتوجه إلى ابتغاء مرضاته، هذه هي المرقاة التي يرقى من خلالها المؤمن لتحقيق كماله الإنساني، واستيفاء تفوقه الذاتي على نقائض النفس وهبوط همتها وإيثارها الراحة على المجاهدة والمعاناة التي هي سبب كل ما يمكن أن يحققه الإنسان من تفوق وارتقاء.

وفي خاتمة الفوائد، وهي الفائدة التاسعة من فوائد "الطرق الصوفية" التي تضمنها "التلويح التاسع" يعطي النورسي للطريقة -كما يقول- فائدة:

"وهي العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم إن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلاً عن الكائنات من جهة، ووليا لله وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي احسن تقويم حقاً فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة.

وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها".

ثم يختتم النورسي هذه الفائدة الأخيرة بهذه الآية الكريمة على لسان المخلوق حيث يعترف بالعجز عن الفهم وإدراك الغايات والوسائل ما لم يعلمه الله ويرشده إليها ﴿سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم﴾.

الفصل العاشر

عقد وحلول

كلمة في "الفصل العاشر"

بعد أن استعرضنا مجمل آراء النورسي -رحمه الله- في "التصوف وقضاياه" ضمن رسالة "التلويحات التسعة" نرى استكمالا للفائدة وإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه أن نعرض شيئا من أجوبته وحلوله في أماكن أخرى من رسائله عن بعض من "العقد والمشاكل" التي أثارت -وما تزال تثير- في أذهان الناس الكثير من علامات الاستفهام، والتي قلما يعثرون لها على حلول مقنعة مطمئنة، وقد رأينا أن نخصص "الفصل العاشر" من هذا الكتاب لهذا الغرض تحت عنوان "عقد وحلول" وسيجد فيه القارئ الكريم -بعون الله- حلولا شافية لكثير من العقد التي تبدو في ظاهرها وكأنها مجافية للعقل والمنطق والأصول الدينية المعتمدة من الكتاب والسنة.

العقدة الأولى: ولاية الصحابة الكرام!

سئل النورسي رحمه الله سؤالا أورده في المكتوب الخامس عشر والسؤال هو:

"معلوم أن صغار الصحابة هم اعظم بكثير من أعاظم الأولياء، فلماذا

إذن لم يكشف الصحابة الكرام بنظر ولايتهم المفسدين المندسين في المجتمع، حتى سبّبوا بإجرامهم استشهاد ثلاثة من الخلفاء الراشدين؟

جوابه: في مقامين اثنين:

المقام الأول

بتوضيح سر دقيق للولاية وبيانه تحل عقدة السؤال وهو:

أن ولاية الصحابة الكرام هي "الولاية الكبرى" ومنبعها وأصولها الأولى من وراثة النبوة، وطريقها: النفوذ من الظاهر إلى الحقيقة مباشـــرة، من دون المرور بطريق البرزخ. فهي ولاية متوجهة إلى انكشاف "الأقربية الإلهية" حيث إن طريـــق هذه الولاية رغم قصرها الشديد سامية وعالية جداً، خوارقها قليلة وكشوفاها وكراماها نادراً ما تظهر، إلاّ أن مزاياها وفضائلها عالية جداً. بينما كرامات الأولياء اغلبها ليست اختيارية، فقد يظهر منهم أمر خارق للعادة من حيث لم يحتسبوا، إكراماً من الله لهم، وأغلب هذه الكشوفات والكرامات يظهر لهم أثناء فترة السير والسلوك وعند مرورهم في برزخ الطريقة. وحينما يتجردون -إلى حـــد ما- من حظوظ البشرية ينالون حالات خارقة للعادة.

أما الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم أجمعين- فهم ليسوا مضطرين إلى قطع الدائـــرة العظيمة بالسير والسلوك ضمن الطريقة للوصول إلى الحقيقة، وذلك لتشرفهم بانعكاس أنـــوار الصحبة النبوية الشريفة، فهم قادرون -بهذا السر- أن ينفذوا من الظاهر إلى الحقيقة بخطوة واحـــدة وفي جلسة واحدة".

ولتوضيح الفرق بين طريق الصحابة في إدراك "الحقيقة" وطريق الأولياء من أهل الطرق يأتي النورسي بالمثال الآتي:

"إن هناك طريقين لإدراك ليلة القدر التي مضت ليلتها بالأمس وغدت ماضياً:

الأولى: معاناة الأيام يوماً بعد يوم سنة كاملة، لأجل الوصول إلى تلك الليلة المباركة مرة أخرى ومقابلتها وموافقتها، فلابد من السير والسلوك وقطع سنة كاملة للظفر بهذه "القربية الإلهية".

وهذا هو مسلك معظم السالكين من أهل الطرق.

الثانية: انسلال الجسم المادي المقيد بالزمان من غلافه، والتسامي روحياً بالتجرد، ورؤية ليلة القدر الماضية بالأمس مع ليلة العيد المقبلة بعد يوم حاضرتين ماثلتين كأنهما اليوم الحاضر، حيث إن الروح ليست مقيدة بالزمان. فحينما تسمو الأحاسيس الإنسانية إلى درجة رهافة الروح يتوسع ذلك الزمان الحاضر -ويطوي فيه الماضي والمستقبل- فتكون الأوقات الماضية والمستقبلة بالنسبة للآخرين بمثابة الحاضر بالنسبة إليه.

في ضوء هذا التمثيل، يكون العبور إلى ليلة القدر الماضية بالأمس، بالرقي إلى مرتبة الروح ومشاهدة الماضي كأنه الحاضر.

وأساس هذا السر الغامض إنما هو انكشاف "الأقربية الإلهية"."

ويمضي النورسي في إلقائه المزيد من الضوء على مفهوم انكشاف "الأقربية الإلهية" التي هي مقام الصحابة الكرام، فيأتينا بهذا المثال الآخر تسهيلا للفهم، حيث يقول:

"إن الشمس قريبة منا لأن ضياءها وحرارتها وصورتها تتمثل في مرآتنا التي في أيدينا، ولكن نحن بعيدون عنها. فلو أحسسنا بأقربيتها من حيث النورانية، وأدركنا علاقتنا مع صورتها المثالية في مرآتنا، وعرفناها بتلك الوساطة، ولمسنا حقيقة ضيائها وحرارتها وهيئتها فإن أقربيتها تنكشف لنـــا لدرجة تغرينا بتكويـــن علاقة معها عن معرفة وقرب. (وهذا شأن الصحابة الكرام بانكشاف الأقربية الإلهية لهم).

ولكن لـــو أردنا التقرب إليها والتعرف عليها مـــن حيث بعدنا عنها لاضطررنـــا إلى كثير جـــداً من السير الفكري والسلوك العقلي لنصعد فكريـــاً بصحبة القوانين العلمية إلى السموات ونتصور من ثمة الشمس متألقة في فضاء الكون، ولابـــد من الاستعانة بهذه القوانين والتدقيقات المطولة جداً لإدراك ما في ماهيتها من ضياء وحرارة وألوان سبعة. وبعد هـــذا كله قـــد نحصل على القربية المعنوية منها، بمثل التي حصل عليها الشخص الأول بتأمل يسير في مرآته.

وعلى غرار هذا المثال؛

فالنبوة، والولاية الموروثة عنها، متوجهتان إلى انكشاف "الأقربية الإلهية". أما سائر الولايات فان معظمها تسلك على أساس "القربية الإلهية" فتضطر إلى السير والسلوك عبر مراتب عدة قبل بلوغها المقام المطلوب.

المقام الثاني

إن الذي كان وراء حوادث الفتن ليس هـــو عدداً قليلاً من اليهود كي يمكن حصرهم وإيقاف ذلك الفساد، وإطفاء تلك الفتن بمجرد كشفهم. إذ بدخول أقوام كثيرة متباينة إلى حظيرة الإسلام، تداخلت واختلطت

تيارات متناقضة وغير متجانسة في باطنها مع عقيدة الإسلام. وبخاصة أولئك الذيـــن أصيب غرورهم القومي بالضربات القوية من يد سيدنا عمر ﷺ. فكانوا يضمرون في نفوســـهم الانتقام ويترقبون الفرصة لـــه حيث أُبطل دينهم السابق ودُمّر سلطانهم وأزيلت دولتهم التي كانت مـــدار افتخارهم وعزهم، لـــذا فقد كانوا يحملون إحساساً بالانتقام شعورياً وغير شـــعوري من خلافة الإســـلام. ولهذا قيل أن المنافقين الدساسين الأذكياء أمثال اليهود قد استغلوا تلك الحالة الاجتماعية.

أي أن مقاومة تلك الفتن وإزالتها هي بمواجهتها بإصلاح ذلك المجتمع وتنوير الأفكار المختلفة، وليس بكشف قلة من المفسدين.

وإذا قيل:

إن سيدنا عمر ﷺ قد هتف من فوق المنبر بسارية أحد قواد سراياه وهو على بعد مسيرة شـــهر منه بـــ"يا سارية الجبل الجبل!"[(1)] فهتافه هـــذا وتوجيهه هذا اصبحا ســـبباً من أسباب نيل النصر في تلك المعركة. هذه الحادثة المشهورة تبين مدى نفاذ بصيرته الحادة.

والسؤال هو: لماذا لم تـــر تلك البصيرة بنظرها الثاقب قاتلَه فيروز الذي كان قريباً منه؟

الجواب: نجيب عن هذا الســـؤال بما أجاب عنه سيدنا يعقوب ﷺ، فقد سئل ﷺ: كيف وجدت ريح يوسف ﷺ من قميصه الذي في ارض مصر، ولم تره في الجب القريب منك في ارض كنعان؟

---

(١) انظر: فضائل الصحابة للإمام أحمد برقم ٣٥٥؛ التاريخ للطبري ٢/ ٣٨٠؛ الدلائل لأبي نعيم ٣/٢١٠، ٢١١؛ ابن عساكر ٧/ ٦/ ١ و ١٣/٦٣/٢ ومن عدة طرق.

فأجاب عليه السلام: إن حالاتنا كالبرق الخاطف، يظهر أحياناً ويختفي أخرى، فنكون أحياناً كمن هـو جالس في أعلى مقام ويرى جميع مـا حوله، وأحياناً أخرى لا نرى ظهر أقدامنا.

والخلاصة: انه مهما كان الإنسان فاعلا ذا اختيار إلاّ أن المشيئة الإلهية هي الأصـل، والقـدر الإلهي حاكم مهيمن والمشيئة الإلهية ترد المشيئة الإنسانية، بمضمون قولـه تعالى: ﴿وَمَا تَشَـاؤُون إلاَّ أَنْ يَشَـاءَ اللهُ﴾ (الإنسان:٣٠) وإذا جـاء القدر عمي البصر، فينفذ حكمه، وإذا ما تكلم القدر تسكت القدرة البشرية، ويصمت الاختيار الجزئي".

العقدة الثانية : الواقع والمثال

"إن أولياء مشهورين أمثال الشيخ محي الدين بن عربي[1](قدس سـره) صاحب كتاب "الفتوحات المكية" والشيخ عبد الكريم الجيلي[2] (قدس سره) صاحب كتاب "الإنسان الكامل" يبحثـون في طبقـات الأرض السبع، وفي الأرض البيضاء خلف جبـل قـاف، وفي أمـور عجيبـة كالمشمشية -كما في الفتوحات- ويقولون: لقد رأينا! فهل ما يقولونه صدق وصواب ؟ فان كان هكذا فليس في أرضنا مثل مـا يقولـون!

---

(1) محي الدين بن عربي: ٥٦٠-٦٣٨ هـ /١١٦٥ - ١٢٤٠ م الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسيه (بالأندلس) وانتقل إلى اشبيلية. وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية "شطحات" صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه. وحبس، فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي فنجا. واستقر في دمشق، فتوفي فيها. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية) في التصوف وعلم النفس و(فصوص الحكم). الأعلام ٢٨١/٦ فوات الوفيات ٢٤١/٢ ميزان الاعتدال ١٠٨/٣ جامع كرامات الاولياء ١١٨/١ شذرات الذهب ١٩٠/٥.

(٢) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، يتسلسل نسبه إلى الشيخ الكيلاني. ولد عام (٧٦٧ هـ) وتوفي عام (٨٣٢هـ) وهو صوفي فقيه، له جملة مصنفات اشهرها: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل.

والجغرافية والعلوم الحاضرة تنكر ما يقولونه! وان لم تكن أقوالهم صواباً فكيف اصبحوا أولياء صالحين، إذ كيف يكون من ينطق بمثل هذه الأقوال المخالفة للواقع المشاهد والمحسوس والمنافية للحقيقة، من أهل الحق والحقيقة!.

الجواب: انهم من أهل الحق والحقيقة، وهم أيضاً أهل ولاية وشهود، فما شاهدوه فقد رأوه حقاً، ولكن يقع الخطأ في قسم من أحكامهم، في مشاهداتهم في حالة الشهود التي لا ضوابط لها ولا حدود، وفي تعبير رؤيتهم الشبيهة بالرؤى التي لا حق لهم في التعبير عنها.

إذ كما لا يحق لصاحب الرؤيا التعبير عن رؤياه بنفسه، فذلك القسم من أهل الشهود والكشف ليس لهم الحق أن يعبروا عن مشاهداتهم في تلك الحالة، حالة الشهود. فالذي يحق له التعبير عن تلك المشاهدات إنما هم ورثة الأنبياء من العلماء المحققين المعروفين بالأصفياء. ولا ريب أن أهل الشهود هؤلاء عندما يرقون إلى مقام الأصفياء سيدركون أخطاءهم بأنفسهم بإرشاد الكتاب والسنة ويصححونها. وقد صححها فعلاً قسم منهم".

ويمضي "النورسي" موضحا الفرق بين عالم "الواقع" وعالم "المثال" مبينا أن خطأ هؤلاء "المشاهدين" ناجم من المزج بين هذين العالمين، والمداخلة بينهما، فيورد لنا – في معرض التوضيح – هذه الحكاية اللطيفة التي تمثل لنا أضرار المزج والمخالطة في التجاوز على عالم الحقيقة والواقع فيقول:

"اصطحب راعيان من أهل القلب والصلاح فحلبا من غنمهما اللبن ووضعاه في إناء خشبي ووضعا الناي القصبي فوق حافتي الصحن. ثم شعر أحدهما بالنعاس، وما فتئ أن غلبه النوم، فنام واستغرق في نومه.

أما الثاني فقد ظل مستيقظاً يرقب صاحبه، وإذا به يرى وكأن شيئاً صغيراً –كالذبابة– يخرج من أنف صاحبه النائم، ثم يمرق سريعاً ويقف على حافة الإناء ناظراً في اللبن ثم يدخل من فوهة الناي من أحد طرفيه ويخرج من فوهة الطرف الآخر، ثم يمضي ويدخل في ثقب صغير تحت شجيرة مشوكة كانت بالقرب من المكان.

ثم يعود ذلك الشيء بعد مدة ويمضي في الناي أيضاً ويخرج من الطرف الآخر منه، ثم يأتي إلى ذلك النائم ويدخل في أنفه.. وهنا يستيقظ النائم من نومه، ويصحو قائلاً لصديقه:

– لقد رأيت يا صديقي في غفوتي هذه رؤيا عجيبة!

– اللهم أرنا خيراً وأسمعنا خيراً.. قل يا صديقي ماذا رأيت؟

– رأيت –وأنا نائم– بحراً من لبن، وقد مد عليه جسر عجيب، وكان الجسر مسقفاً، ولسقفه نوافذ، مررت من ذلك الجسر، ورأيت في نهاية الطرف الثاني منه غابة كثيفة ذات أشجار مدببة. وبينما أنا انظر إليها متعجباً رأيت كهفاً تحت الأشجار فسرعان ما دخلت فيه، ورأيت كنزاً عظيماً من ذهب خالص.

فقل لي يا صديقي، ما ترى في رؤياي هذه، وكيف تعبّرها لي؟ أجابه صديقه الصاحي:

– إن ما رأيته من بحر اللبن هو هذا اللبن في هذا الإناء، وذلك الجسر الذي فوقه هو الناي الموضوع فوق حافتيه، والغابة هي هذه الشجيرة المشوكة، وذلك الكهف الكبير هو هذا الثقب الصغير، تحت هذه النبتة القريبة منا. فهات يا صديقي المعوَل لأريك الكنز بنفسي. فيأتي

صديقه بالمعوَل ويبدآن الحفر تحت تلك الشجيرة، و لم يلبثا حتى ينكشف لهما ما يسعدهما في الدنيا من كنـــز ذهبي".

ويواصل "النورسي" كلامه قائلا:

"وهكذا فان ما رآه النائم في نومه صواب وصحيح، وقد رأى ما رأى حقيقة وصدقاً، ولكن لأنه مستغرق في عالم الرؤيا، وعـــالم الرؤيـــا لا ضوابط له ولا حدود، فلا يحق للرائي تعبير رؤياه، فضلاً عن أنه لا يميز بين العالم المادي والمعنوي، لذا يكون قسم من حكمه خطأ. حتى أنـــه يقول لصاحبه صادقاً: لقد رأيت بنفسي بحراً من لبن. ولكـــن صـــديقه الذي ظل صاحياً يستطيع ان يميز بسهولة العالم المثالي ويفرزه عن العالم المادي، فله حق تعبير الرؤيا حيث يخاطب صديقه قائلاً:

– إن ما رأيته يا صديقي حق وصدق، ولكن البحر الذي رأيته ليس بحراً حقيقياً، بل قد صار إناء اللبن الخشبي هذا في رؤياك كأنه البحر، وصار الناي كالجسر.. وهكذا..

وبناء على هذا المثال ينبغي التمييز بين العالم المادي والعالم الروحاني، فلو مزجا معاً، تأتي أحكامهما خطأ ولا نصيب لها من الصحة".

وشعر النورسي وكأن القارئ الكريم في حاجة للمزيد من ضرب الأمثـــال لكي تبدو الفكرة أكثر وضوحا، فيأتينا بهذا المثل فيقول:

"هب أن لك غرفة ضيقة، وضعت في جدرانها الأربعة مرايـــا كـــبيرة، تغطي كل مرآة الجدار كله، فعندما تدخل غرفتك ترى أن الغرفة الضيقة قد اتسعت وأصبحت كالساحة الفسيحة، فإذا قلت:

– إنني أرى غرفتي كساحة واسعة.. فانك لا شك صادق في قولك.

ولكن إذا حكمت وقلت:

- غرفتي واسعة سعة الساحة فعلاً.. فقد أخطأت في حكمك، لأنك قد مزجت عالم المثال -وهو هنا عالم المرايا- بعالم الواقع والحقيقة، وهو هنا عالم غرفتك كما هي فعلاً.

وهكذا تبين أن ما جاء على ألسنة بعض أهل الكشف، أو ما ورد في كتبهم حول الطبقات السبع للكرة الأرضية من تصويرات من دون أن يزِنوا بياناتهم بموازين الكتاب والسنة لا تقتصر على الوضع المادي والجغرافي للأرض. إذ قالوا:

إن طبقة من طبقات الأرض خاصة بالجن والعفاريت ولها سعة مسيرة ألوف السنين. والحال أن الكرة الأرضية التي يمكن قطعها في زمن قصير لا تنطوي على تلك الطبقات العجيبة الهائلة السعة.

ولكن لو فرضنا أن كرتنا الأرضية كبذرة صنوبر في عالم المعنى وعالم المثال وفي عالم البرزخ وعالم الأرواح، فان شجرتها المثالية التي ستنبثق منها وتتمثل في تلك العوالم ستكون كشجرة صنوبر ضخمة جداً بالنسبة لتلك البذرة. لذا فان قسماً من أهل الشهود يرون أثناء سيرهم الروحاني طبقات الأرض في عالم المثال واسعة سعة مهولة جداً، فيشاهدونها بسعة مسيرة ألوف السنين. فما يرونه صدق وحقيقة. ولكن لأن عالم المثال شبيه بصورة العالم المادي، فهم يرونهما -أي العالمين كليهما- ممزوجين معاً. فيعبّرون عما يشاهدون كما هو. ولكن لأن مشهوداتهم غير موزونة بموازين الكتاب والسنة ويسجلونها كما هي في كتبهم عندما يعودون إلى عالم الصحو، فان الناس يتلقونها خلاف الحقيقة".

ويسوق النورسي بين يدي شرحه مثالا آخر، فهو رغم وضوحه وبساطته إلاّ انه يقرب لنا المعنى البعيد الذي يريد إلقاء المزيد من الضوء عليه، فيقول:

"إذ كما أن الوجود المثالي لقصر عظيم وحديقة فيحاء تستوعبه مرآة صغيرة، كذلك سعة ألوف السنين من العالم المثالي، والحقائق المعنوية تستوعبها مسافة سنة من العالم المادي".

ثم يخلص النورسي من كل ما تقدم إلى "خاتمة" مهمة يختم بها كلامه عن الواقع والمثال، ملخصا بها جملة ما قاله في سطور قليلة. وواضعا يدنا على "الميزان الأساس" الذي ينبغي أن نزن به ما يرد في كتب القوم من مشاهدات وأذواق وكشفيات، فيقول :

"يُفهم من هذه المسألة:

إن درجة الشهود أوطأ بكثير من درجة الإيمان بالغيب. أي أن الكشفيات التي لا ضوابط لها لقسم من الأولياء المستندين إلى شهودهم فقط، لا تبلغ أحكام الأصفياء والمحققين من ورثة الأنبياء الذين لا يستندون إلى الشهود بل إلى القرآن والوحي، فيصدرون أحكامهم حول الحقائق الإيمانية السديدة. فهي حقائق غيبية إلاّ أنها صافية لا شائبة فيها. وهي محددة بضوابط، وموزونة بموازين.

إذن فميزان جميع الأحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات إنما هو: دساتير الكتاب والسنة السامية، وقوانين الأصفياء والمحققين الحدسية".

العقدة الثالثة: عودة إلى "وحدة الوجود"

ناقش النورسي فكرة "وحدة الوجود"، وبين مخاطرها وإشكالاتها في "التلويح

الخامس" من رسالته " التلويحات التسعة". وها هو يعود هنا ليتناولها من جانب آخر بالمقارنة بين طريقها الصعب، وطريق السلف الصالح من الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام مبينا لصاحب السؤال طريق السلامة التي ينبغي سلوكها، ومفنداً بعض مغالطات هذه الفكرة، مستعينا بالأمثال التي هي أكثر سبيل أفكاره إلى الأذهان، كما هو شأنه في كثير من رسائله وكتاباته.

ويثبت هنا –بين يدي كلامه– سؤال السائل كما جاءه ثم يشرع بالإجابة عليه، والسؤال هو:[1]

"يعتبر الكثيرون "وحدة الوجود" من أرفع المقامات، بينما لا نشاهد لها أثراً عند الذين لهم الولاية الكبرى، وهم الصحابة الكرام وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ولا عند أئمة آل البيت وفي مقدمتهم الخمسة المعروفون بآل العباء، ولا عند المجتهدين وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة، ولا عند التابعين، فهل الذين أتوا من بعد هؤلاء اكتشفوا طريقاً أسمى وارفع من طريقهم ؟ وهل سبقوهم في هذا المضمار ؟!".

يجيب النورسي عن هذا التساؤل بقوله:

"كلا.. وحاش لله أن يكون الأمر كذلك، فليس في مقدور أحد كائناً من كان أن يصل إلى مستوى أولئك الأصفياء الذين كانوا أقرب النجوم اللامعة إلى شمس الرسالة والوارثين السابقين إلى كنوز النبوة فضلاً عن أن يسبقوهم. فالصراط المستقيم إنما هو طريقهم والمنهج القويم إنما هو منهجهم".

ثم ينعطف واصفا "وحدة الوجود" بالأوصاف الآتية ليكون في ذهن القارئ صورة أولية عنها فيقول أنها: "مشرب، ونزعة، وحال، وهي مرتبة ناقصة".

---

(١) المكتوبات ص ٧٦ .

فإذا كان الأمر كذلك فما هو السر في إصرار أصحاب وحـــدة الوجـــود الداخلين فيها في عدم الخروج منها أو التخلي عنها ؟

يجيب "النورسي":

"لكونها مشرّبة بلذة وجدانية ونشوة روحية فان معظم الذين يحملونهـــا أو يدخلون إليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنهـــا هـــي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطاولها أفق".

فأصحاب هذا المشرب صنفان :

صنف متجرد من المادة ووسائلها، منفلت من قيـــود الأســـباب وثقلـــها، مستغرق في لجة الاستغراق الكلي في بحار "واجب الوجود" فهذا الصنف كمـــا يقول النورسي:

"قد يصل إلى وحدة وجود حالي لا علمي، ناشئة من وحدة شهود وليس من وحدة الوجود، فتحقق لصاحبها كمالاً ومقاماً خاصاً به، بل قد توصله إلى إنكار وجود الكون عند تركيز انتباهه في وجود الله".

والصنف الثاني:

من المتشبثين بالمادة وأسبابها،المنجذبين إلى كتلها وأثقالها، المقيـــدين بمـــسافاتها وأوزانها، المستغرقين في "الكون" الذاهلين عن "المكون". فمن كان من هذا الصنف:

"أما إن كان صاحب هذا المشرب من الذين أغرقتهم المادة وأسبابها. فـــان ادعاءه لوحدة الوجود قد تؤدي به إلى إنكار وجود الله سبحانه لكون انتباهـــه منحصراً على وجود الكون". كما يقرر "النورسي".

فالصنف الأول قد تطرف واشتط وجاوز حدود ما رسمه "الكتاب والسنة"...

أما الصنف الثاني فقد وقع في هاوية الكفر والضلالة...

والصراط المستقيم والوسط بين الإفراط والتفريط، إنما هو كما يؤكد النورسي:

"أن الصراط المستقيم لهو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن "حقائق الأشياء ثابتة" وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١) أي انه منــزه عن الشبيه والتحيز والتجزؤ. وان علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات، فالموجودات ليست أوهاماً كما يدعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى.

إذن فليس صحيحاً قولهم "همه اوست" أي "لا موجود إلاّ هــو" وإنما الصحيح "همه از اوست" أي "لا موجود إلاّ منه" ذلك لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القديم نفسه، أي ازلية".

ويتابع النورسي كلامه مبينا لنا منبع الخطأ في تصور أصحاب "وحدة الوجــود" فيضرب الأمثال لتقريب "المعنى" الذي يريد كما هي عادته، فيقول في المثال الأول:

"لنفرض أن هناك سلطاناً، وان لهذا السلطان دائرة عدل، فهذه الدائرة تكون ممثلة لاسم "السلطان العادل". وان هذا السلطان في الوقت نفسه هو "خليفة" إذن فان له دائرة تعكس فيها ذلك الاسم. كما أن هذا السلطان يحمل أسم "القائد العام للجيش" لذا ستكون له دائرة عسكرية تظهر ذلك الاسم. فالجيش مظهر لهذا الاسم".

ولنر الآن ماذا سيترتب من عواقب لو أننا وقفنا في تصورنا لسلطات هــذا السلطان على جانب واحد من جوانب سلطانه، وركزنا اهتمامنا وأفكارنا عليه، يقول "النورسي":

"والآن إذا قيل بأن هذا السلطان هـــو "السلطان العادل" فقط وانـــه لا توجد سوى دائرة العدل التي تعكس اسم السلطان الأعظم، ففي هذه الحالة تظهر بالضرورة بين موظفي دائـــرة العدل صفة اعتبارية -غير حقيقية- لأوصاف علماء دائرة الشؤون الدينية وأحوالهم، أي ينبغي أن يتصور صفة ظلية وتابعة وغير حقيقية لدائرة الشؤون الدينية بين موظفي دائرة العدل. وكذلك الحال بالنسبة للدائرة العسكرية، إذ لابد أن تظهر أحوالها ومعاملاتها بشكل ظلي وفرضي وغير حقيقي بين موظفي دائرة العدل وهكذا.

إذن ففي هذه الحالة فان اسم السلطان الحقيقي وصفة حاكميته الحقيقية "الحاكم العادل" وحاكميته في دائـــرة العدل، أما صفاته الأخرى مثل "الخليفة" و"القائد العام للجيش"..الخ، فتبقى نسبية وغير حقيقية، بينما ماهية السلطان وحقيقة السلطنة تقتضيان هذه الأسماء جميعاً بصورة حقيقية، وان الأسماء الحقيقية تتطلب هي الأخرى دوائر حقيقية وتقتضيها.

وهكذا فإن سلطنة الألوهية تقتضي وجود أسماء حسنى حقيقية متعددة لها، أمثال: الرحمن، الرزاق، الوهاب، الخلاق، الفعال، الكريم، الرحيم، وهذه الأسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها".

فأصحاب "وحدة الوجود" وقفوا من بين أسمائه سبحانه وتعالى مـــع أسمـــاء "واجب الوجود، الواحد، الأحد " وغرقوا في عمق أعماق بحار "التوحيد" حتى ذهلوا عن أسمائه وصفاته الأخرى، وبذلك سلبوا الوجود من كل شيء "ســـواه" وانزلوا "الموجودات" منـــزلة العدم.

ولما كانت أسماؤه وصفاته الأخرى -جل وعلا- أسماء حقيقية وليست ظلية

أو اعتبارية، كان لابد لها من مظاهر ودوائر تتجلى فيها وتظهر من خلالها:

فرحمة "الرحمن" لمن ؟ إن لم تكن لموجود تغشاه وتتنزل عليه! ورزق "الرزاق" لمن ؟ إن لم يكن لموجود مفتقر إلى رزقه !

وكرم "الكريم" لمن ؟ إن لم يكن لموجود يظهر فاقته لكرمه !

وهكذا قل في أسمائه وصفاته الأخرى جل شأنه.

ولنستمع إلى النورسي الآن وهو يختم مثاله الأول بهذه الخاتمة الملخصة لما مضى من قوله :

"والآن ما دام أصحاب وحدة الوجود يقولون "لا موجود إلاّ هو" وينزلون الموجودات منزلة العدم والخيال فإن أسماء الله تعالى أمثال: واجب الوجود، الموجود، الأحد، الواحد، تجد لها تجلياتها الحقيقية ودوائرها الحقيقية، وحتى إن لم تكن دوائر هذه الأسماء ومراياها حقيقية -وأصبحت خيالية وعدمية- فلا تضر تلك الأسماء شيئاً، بل ربما يكون الوجود الحقيقي أصفى وألمع إن لم يكن في مرآته لون الوجود. ولكن في هذه الحالة لا تجد أسماء الله الحسنى الأخرى أمثال: الرحمن، الرزاق، القهار، الجبار، الخلاق، تجلياتها الحقيقية. بل تصبح اعتبارية ونسبية، بينما هذه الأسماء هي أسماء حقيقية كإسم "الموجود" ولا يمكن أن تكون ظلاً، وهي أصلية لا يمكن أن تكون تابعة.

وهكذا فان الصحابة والمجتهدين والأصفياء وأئمة أهل البيت عندما يشيرون إلى أن "حقائق الأشياء ثابتة" يقرون بأن لأسماء الله تعالى تجليات حقيقية وان لجميع الأشياء وجوداً عرضياً أسبغه الله عليها بالخلق والإيجاد، ومع أن هذا الوجود يعتبر وجوداً عرضياً وضعيفاً وظلاً غير

دائم بالنسبة لوجود "واجب الوجود" إلاّ أنه ليس وهماً وليس خيالاً، فإن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ على الأشياء صفة الوجود بتجلي اسمه "الخلاق" وهو يديم هذا الوجود".

ثم يستطرد النورسي في مزيد من الشرح والتوضيح، فيعزز مثاله الأول بمثال ثان، فيقول:

"المثال الثاني: لنفرض أن في هذه الغرفة أربع مرايا جدارية كبيرة موضوعة على جدرانها الأربعة، فصورة الغرفة ترتسم على كل مرآة من هذه المرايا، ولكن كل مرآة تعكس صورة الأشياء بالشكل الذي يناسب صفتها ولونها، أي أن كل مرآة ستعكس منظراً خاصاً للغرفة. فإذا دخل رجلان إلى الغرفة واطلع أحدهما على إحدى هذه المرايا فانه يعتقد بأنه يرى جميع الأشياء مرتسمة فيها، وعندما يسمع بوجود مرايا أخرى وما فيها من صور فانه يعتقد بأنها صور المرايا التي تنعكس على مرآته نفسها والتي لا تشغل إلاّ حيزاً صغيراً منها، بعد أن تضاءلت صورها مرتين وتغيرت حقيقتها فيقول:

إنني أرى الصورة هكذا. إذن فهذه هي الحقيقة.

فيقول له الرجل الثاني: نعم انك ترى ذلك وما تراه صحيح، ولكن ليس هو في الواقع صورة الحقيقة نفسها، فهناك مرايا أخرى غير المرآة التي تحدق فيها، وتلك المرايا ليست صغيرة وضئيلة ومنعكسة من الظلال كما تراها في مرآتك!

وهكذا فان كل اسم من أسماء الله الحسنى يتطلب مرآة خاصة به كل على حدة. فمثلاً: إن الأسماء الحسنى أمثال: "الرحمن، الرزاق" لما كانت

أسماء حقيقية وأصلية فإنها تقتضي موجودات لائقة بها ومخلوقات محتاجة إلى مثل هذا الرزق ومثل هذه الرحمة.

فكما يقتضي اسم "الرحمن" مخلوقات حية محتاجة إلى الرزق في عالم حقيقي، فان اسم "الرحيم" يستدعي جنة حقيقية كذلك. لذا فان اعتبار أسماء معينة من أسماء الله الحسنى أمثال "الموجود، الواحد، الأحد، واجب الوجود" هي الأسماء الحقيقية فقط وتوهم الأسماء الحسنى الأخرى تابعة وظلاً لها حكم غير عادل وتنكّب عن واجب الاحترام لهذه الأسماء الحسنى كما ينبغي.

إذن فالصراط المستقيم، بل صراط الولاية الكبرى إن هو إلاّ طريق الصحابة والأصفياء والتابعين وأئمة أهل البيت والأئمة المجتهدين وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأوَل للقرآن الكريم". [١]

العقدة الرابعة: الطريق الوسط

تندر الخلافات في آراء البشر وأفكارهم حول قبح الأشياء وجمالها، وصلاح فكرة ما أو فسادها، وخطأ النظرة إلى الأمور أو صوابها، وهم بعد يضعون خطاهم على أولى الدرجات من سلم الحياة الغريزية المبكرة.

فهم يتماثلون -إلى حد ما- في خضوعهم لحكم الضرورات التي تحفظ على الإنسان حياته، واستمرارية وجوده، من مطعم وملبس ومسكن.. إلى آخر هذه الغرائز التي تولد مع الإنسان يوم مولده، وهم يتشاهون -أيضاً- في طرق استجاباتهم لهذه الحوافز الغريزية، وطرق تعاملهم العفوي معها...

---

(١) المكتوبات ص١٠٥-١٠٨

فلا يختلفون ولا تتعدد أفكارهم في "رغيف الخبز" وضرورته للجائعين، ولا يذهبون مذاهب شتى في حاجة العارين منهم للكساء -أيا كان هذا الكساء- ليقيهم الحر والقر، ولا يناقشون جمالية سكناهم من الغيران والكهوف.

ولكن.. كلما ارتقى البشر في سلم الحياة، وتحرروا شيئا فشيئا من ضغوط غرائزهم، وعلوا عليها، وتحفزت أذهاهم وتنشطت، وسمت "وجدانياهم"، وشفت أذواقهم، ورقت أحاسيسهم... انفرجت شقة الخلاف بينهم، وافترقت طريقهم، وعز لقاؤهم، واختلفت أحكامهم، وتباينت آراؤهم فيما يقبلون ويرفضون، ويؤمنون وينكرون، ويأتون ويدعون، فيذهبون في الشيء الواحد مذاهب شتى، وينقسمون في الفهم والتلقي أقساما عدة، ويرون في "الفكرة الواحدة" آراء لا عد لها ولا حصر... وهكذا كلما انتقل الناس باهتماماهم وأفكارهم من "عالم المحسوسات" إلى "عالم المجردات" من أفكار ومذاهب وعقائد وأديان، ازدادت خلافاهم، وتفاقمت تناقضاهم، وانشعبت آراؤهم، حتى أنهم ليرون في "رجال الإيمان" وأصحاب الفكر والرأي فيهم آراء مختلفة متناقضة تناقضا مريعا، ويغالون فيهم مغالاة عجيبة فإذا "الرجل الواحد" عند طائفة من الناس قمة من قمم الإيمان ولإحسان، ويهبط عند الأخرى إلى هاوية الكفر والضلالة والعصيان.

ولم يختلف "أهل السنة والجماعة" في أحد كما اختلفوا في "محي الدين بن عربي"، فمنهم من علا به، وارتفع، حتى جعله قطب زمانه، وولي وقته، ومنهم من اشتط وغال حتى أنزله منزلة هي دون منازل العصاة والفسقة..

أما النورسي -رحمه الله- فيزن الرجل بميزانه العدل الذي لا إفراط فيه ولا تفريط فيقول :

"إن محي الدين بن عربي مهتد ومقبول ولكنه ليس بمرشد ولا هاد وقدوة في جميع كتاباته، إذ يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالف القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعض أقواله -ظاهراً- الضلالة غير انه بريء من الضلالة، إذ الكلام قد يبدو كفرا بظاهره، إلاّ أن قائله لا يكون كافراً. ولقد قال محي الدين: "تُحرم مطالعة كتبنا على من ليس منا" أي على من لا يعرف مقامنا. نعم إن قراءة كتب محي الدين ولاسيما مسائله التي تبحث في وحدة الوجود مضرة في هذا الزمان".[(1)]

وينتهي النورسي إلى تقرير حقيقة مهمة، ووضع ميزان عادل، وطريق وسط في الحكم على الرجال والأعمال، فيقول في "المسالة الثانية من المكتوب السادس والعشرين":

"إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي، فان المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة، ذلك لأن ابن عربي يقول "لا موجود إلاّ هو" لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات.

أما الآخرون فلأجل الحصول على الحضور القلبي أيضاً قالوا: "لا مشهود إلاّ هو" وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيباً.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم ولا تسجنها في سجن النسيان

---

(١) اللمعات ص ٤٤٥

المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية". [١]

فماذا حدث معهم ؟ وكيف نظر الناس إليهم وتعاملوا معهم ؟

يجيب النورسي قائلا:

"إن أهل الحق والاستقامة الذين يطلق عليهم "أهـــل السنة والجماعة، وهم يمثلون الغالبية العظمى في العالم الإسلامي، قد قاموا بحفظ حقائق القرآن والإيمان كما هي على محجتها البيضاء الناصعة، وذلك باتباعهم الســـنة الشـــريفة بحذافيرها كما هي، دون نقص أو زيـــادة، فنشأت الأكثرية المطلقة من الأولياء الصالحين من هـــذه الجماعة. ولكن شوهد أولياء آخرون في طريق تخالف أصول أهل السنة والجماعة، وخارجة عن قسم من دساتيرهم، فانقسم الناظرون في شأن هؤلاء الأولياء إلى قسمين:

الأول:

هم الذين أنكروا ولايتهم وصلاحهم، وذلك لمخالفتهم أصول أهل السنة والجماعة بل قد ذهبوا إلى أبعد من الإنكار، حيث كفّروا عدداً منهم.

أما الآخرون:

فهم الذين اتبعوهم وأقروا ولايتهم، ورضوا عنهم، لذا قالوا: إن الحق ليس محصوراً في ســـبيل أهل السنة والجماعة. فشكلوا بهذا القول فرقة مبتدعة وانساقوا إلى الضـــلال. ناســـين أن المهتدي لنفسه ليـــس من

---

(١) المكتوبات ص ٤٢٤-٤٢٥.

الضروري أن يكون هادياً لغيره، ولئن كان شيوخهم يُعذرون على ما ارتكبوا من أخطاء لأنهم مجذوبون، إلاّ انهم لا يعذرون في اتباعهم لهم.

وهناك قسم ثالث:

سلكوا طريقاً وسطاً، حيث لم ينكروا ولاية أولئك الأولياء وصلاحهم، إلاّ أنهم لم يرضوا بطريقتهم ومنهجهم، وقالوا: إن ما تفوهوا به من الأقوال المخالفة للأصول الشرعية، إما أنها ناشئة عن غلبة الأحوال عليهم مما جعلهم يخطئون، أو أنها شطحات شبيهة بالمتشابهات التي لا تعرف معانيها ولا تفهم مراميها.

فالقسم الأول ولاسيما علماء أهل الظاهر قد أنكروا ولاية كثير من أولياء عظام -مع الأسف- وذلك بنية الحفاظ على طريق أهل السنة، بل ذهبوا مضطرين إلى الحكم بضلالهم تحدوهم تلك النية.

أما الآخرون المؤيدون لهم، فقد تركوا طريق الحق وأداروا ظهورهم لها، لما يحملون من حسن الظن المفرط بشيوخهم، بل حصل انحراف قسم منهم إلى الضلال فعلاً ". (١)

العقدة الخامسة: عصر إنقاذ الإيمان

مسألة "الآخرة"، ومسألة صيرورة الإنسان إليها في خاتمة المطاف عندما يغمض الموت جفنيه، ليست من المسائل الهينة التي يمكن للإنسان أن يغفلها أو يؤجل النظر فيها، أو لا يدعها تشغل من ذهنه إلاّ بعض هوامش هذا الذهن بين الحين والآخر.

---

(١) المكتوبات ص ٤٣٩.

فالخلود الأخروي ممسك بتلابيب النفس الإنسانية من الأعماق، وهو آخذ بناصيتها إلى هذا الخلود شاءت أم أبت. وما أشواق الإنسان الغامضة، وأحاسيسه المبهمة، وأسى روحه، وحنين نفسه إلاّ بعض آثار ما ينعكس -على النفس- من صور الجمال الأخروي الذي يحبب نفسه إلينا، ويدعونا لمحبته !

فالموت وما بعد الموت، هو الجد أعظم من كل جد، وهو الخطر اجل من كل خطر، وهو مسألة المسائل، وكبرى قضايا الإنسان التي ينبغي أن تكون لها الأسبقية في الذهن على كل قضاياه الأخرى، لأنه مقبل -مهما طال به الأجل- على عالم جديد سيحط به رحاله، وينصب فوق أرضه خيامه أبد الآبدين، فهيهات -بعد- أن يطوي خيامه، ويبرح مكانه.

وكوننا "نموت" مسألة مفروغ منها عند كل البشر... ولكن ما ليس مفروغا منه عند كل البشر هو:

أين نذهب بعد الموت ؟!

وقد أجابت "الأديان" على هذا السؤال جوابا لا لبس فيه ولا غموض، فأشارت إلى أن الإنسان مخلوق للخلود، ومصنوع للأبد، وانه إلى حياة أخرى -بعد موته- يصير، والى عالم آخر -بعد عالمه- يعود.

وهتف الأنبياء جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم بالإنسان:

أن قم أيها الإنسان، وشمر عن ساعد الجد، فلست شيئا تافها، ولا كما مهملا، فأنت مصنوع الله وبناؤه، وأنت خليفته في أرضه، أمين سره في خلقه - فإليه -بعد موتك- تعود، والى آخرته -بعد دنياك- تؤول، فلا تحقر نفسك، ولا تبخس حقك، ولا ترض لنفسك بتراب الأرض مصيرا، وبظلام القبر مسكنا ومستقرا.

وعصرنا هذا هو عصر الفتوحات العظيمة والمثيرة في "النفس الإنسانية" و"النفس الكونية" على حد سواء، والبشرية ما زالت ترتقب المزيد من هذه الكشوفات التي أثبتت بما لا يقبل الشك بأن في خفايا الإنسان، وفي كل كائن حي خميرة الخلود وبذرته، وان كل شيء يسعى نحو الارتقاء والاكتمال والبقاء.

فلم يعد إنكار المنكرين للآخرة والخلود، يثير ما كان يثيره في بدايات هذا القرن من ضجة وإثارة وإعجاب، تدير الرؤوس الفارغة، وتملأها تيها واختيالا، بل أصبح هذا "الإنكار"، أو هذا "النفي" الذي لا دليل عليه، مجرد هوى وهوس يثير الرثاء والإشفاق، ولا يمكن أن تتحمله -اليوم- وتقبل به "عقلانية" هذا العصر الذي رجحت فيه كفة "المثبتات" على كفة "المنفيات".

وأما المذبذبون بين "الإيمان" و "الإنكار"، مرة يثبتون، ومرة ينفون، والممزقون المشتتون بين اليقين والشك، فلا يقر لهم قرار ولا ترسو سفينة رأيهم على شاطئ، فإنما مبعث حيرتهم، وعلة شكهم، تكمن في كونهم خائفين مرتعبين، ومهزومين هاربين من مسؤوليات "الإيمان" وتبعات "اليقين"، وهم أيضاً خائفون مشفقون من شبح "العدم" ووحش "الفناء" !

فإذا خافوا الفناء وارتعبوا من الموت والعدم، لجأوا إلى "الإيمان" وسارعوا إلى "الآخرة" يطلبون عونها ووقايتها من هذا "العدم" الرهيب الذي يهدد وجودهم في كل لحظة..

وإذا ما استثقلوا تكاليف الإيمان وتبعاته، وغلب عليهم الهوى، وصرعتهم الشهوات، لجأوا إلى "الشك والإنكار" هروبا من مسؤولية "الاستخلاف" في الأرض وتملصا من ثقل "الأمانة" التي حملها الإنسان، وأبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها.

والغالبية العظمى من البشر في عصرنا هذا هم هؤلاء "النعاميون"[١] المساكين الذين ينبغي أن تكرس الجهود لإنقاذهم وإنقاذ إيمانهم.

فما دام الأمر هكذا، يقول النورسي في المكتوب الخامس :

"فإني أخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني[٢] والشاه النقشبند[٣] والإمام الرباني وأمثالهم من أقطاب الإيمان رضوان الله عليهم أجمعين في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية، ذلك لأنهما منشأ السعادة الأبدية، وان أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي.

نعم، لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف. فالإنسان لا يمكن أن يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة والحقائق الإسلامية خبز.

وفيما مضى كان الصعود إلى بعض من حقائق الإيمان يستغرق أربعين يوماً، بالسير والسلوك، وقد يطول إلى أربعين سنة، ولو هيأت الرحمة الإلهية في الوقت الحاضر طريقا للصعود إلى تلك الحقائق لا يستغرق

---

(١) نسبة إلى النعامة الطائر الذي يخفي رأسه في الرمال هربا من الصيادين .

(٢) الكيلاني (عبد القادر): هو ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي. ولد بجيلان سنة ٤٧٠ هـ، ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وهو أحد الأقطاب المعروفين لدى أهل السنة والجماعة، ومجدد عظيم استقام على يديه كثير من المسلمين واسلم كثير من اليهود والنصارى. من مصنفاته؛ كتاب الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ .

(٣) النقشبند (الشاه): هو محمد بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية ولد في قرية قصر عارفان، قرب بخارى، ودرس في سمرقند، تزوج في الثامنة عشرة من عمره، انتسب إلى شيوخ كثيرين وعاد أخيراً إلى بخارى ولم يغادرها حتى وفاته، وانشأ فيها طريقته ونشرها، وتوفي ٣ ربيع الأول ٧٩١هـ ١٣٨٩م عن (٧٣) سنة من العمر. من مصنفاته: الأوراد البهائية، حياتنامة، تنبيه الغافلين.

أربعين دقيقة! فليس من العقل أن لا يبالى بهذا الطريق؟!

فالذين قرأوا بإنعام ثلاثاً وثلاثين رسالة من "الكلمات" يقرون بأن تلك "الكلمات" قد فتحت أمامهم طريقاً قرآنياً قصيراً كهذا.

فما دامت الحقيقة هكذا. فإني اعتقد:

أن "الكلمات" التي كُتبت لبيان أسرار القرآن هي أنجع دواء لأمراض هذا العصر وأفضل مرهم يمرر على جروحه، وانفع نور يبدد هجمات خيول الظلام الحالك على المجتمع الإسلامي، وأصدق مرشد ودليل لأولئك الحيارى الهائمين في وديان الضلالة". [1]

(١) المكتوبات ص ٢٧.